الثورة العلمية التقنية الجديدة

والعلاقات الدولية

روجيه غارودي

ترجمة : أديب اللجمي

روجيه غارودي Roger Garaudy فيلسوف فرنسي ، ومناضل شيوعي ، عضو في اللجنة المركزية وفي المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي . يدرس الفلسفة في جامعات فرنسا .

أطروحته التي نال عليها لقب الدكتوراه في الفلسفة ، تحمل عنوان : « النظرية المادية في المعرفة » (سنة ١٩٥٣) وفيها ينقد نقداً قاسياً جميع النظريات « المثالية » ، لينتهي الى البرهان على أن النظرية المادية ـ وبالضبط النظرية الماركسية ـ في المعرفة هي الصحيحة ، وأن ما قدمه ستالين من دراسات حول علم اللغة قد عزز هذه النظرية ودعمها. كان إيمانه « بالحزب » مطلقاً ، وبستالين لا نهائياً .

وبعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي (صيف ١٩٥٦) ، ترنحت معتقدات غارودي ، وأخذ يطرح طرحاً جذرياً تطور الماركسية – اللينينية ، والطريق أو الطرق الى الاشتراكية ، والانتقال الى الشيوعية ، وأخذ يتساءل عن أبعاد المفهوم الاشتراكي كما يطبقه الاتحاد السوفييتي .

وفي الستينات نشر غارودي ثلاثة كتب تعد أساسية في تطوير الفلسفة الماركسية : كتاب « ماركسية القرن العشرين Le Marxisme du xxe Siécle » ، وكتاب « من الحرمان الى الحوار de l'anathéme au dialogue » ، وكتاب « واقعية بلا شاطىء d'un réalisme sans rivage » ، وفيها كلها يحاول الفيلسوف الشيوعي فتح باب الماركسية لإقامة حوار مع المفاهيم الجديدة .

ذلك أن الثورة العلمية التقنية الجديدة قد قلبت جميع المفاهيم ، في تقدير روجيه غارودي . ومن الخطأ التشبث بمفاهيم النصف الاول من القرن العشرين أو النصف الثاني من القرن التاسع عشر في هذا العصر الذي اقام فيه العلم والتقنية علاقات اجتماعية من نوع جديد. فثمة أزمة للاشتراكية وللشيوعية . «ولم يعد ممكناً السكوت بعد الآن . ان الحركة الشيوعية الدولية تعاني أزمة ، فالانفصال الصيني ، واجتياح تشيكوسلوفاكية في ١٩٦٨ ، ومؤتمر موسكو في حزيران ١٩٦٩ ، واكراه الحزب التشيكوسلوفاكي على التنكر لاحتجاجاته في آب ١٩٦٨ ، هي ظواهر بديهية لهذه الازمة » . هذا ما جاء في السطور الاول من كتاب روجيه غارودي الذي نشر منذ حوالي شهر بعنوان « التحول الكبير للاشتراكية »

Roger Garaudy - le grand tournant du Socialisme - Gallimard,Paris 1969

ان الافكار التي ضمنها غارودي هذا الكتاب قد تسبب لصاحبها ان يفصل لا من اللجنة المركزية وحسب ، بل ومن الحزب الشيوعي فصلا تاماً . ذلك أن مؤتمراً للحزب الشيوعي الفرنسي سيعقد خلال الاسبوع الأول من شهر فبراير ١٩٧٠ (أي بعد أيام من صدور هذا العدد من «المعرفة») ، وسينظر بأمر هذا الفيلسوف الشيوعي « المتمرد » ؛ وقد فتحت جريدة « الأومانيته » لسان حال الحزب الشيوعي الفرنسي – حقلاً يومياً ، خلال شهر كانون الثاني ، لتعليقات وردود المناضلين الشيوعيين على أفكار غارودي ، وكذلك لردود غارودي على منتقديه .

ونحن إذ نقدم للقراء العرب الفصل الاخير من كتاب غارودي المذكور ، فلكي نشير بصفة خاصة الى أهمية الأفكار التي يقدمها هذا المفكر ، بغض النظر عن صحتها الواقعية أو صحتها الماركسية . ان روحية غارودي ينادي بالحوار ، والحوار يعني قبل كل شيء أن نعرف آراء الآخرين .

– المترجم –

ان التحول العلمي التقني الكبير لايطرح على كل شعب مشكلات لم يسبق أن طرحت من قبل وحسب ؛ إنه يقلب العلاقات الاقتصادية والسياسية بين الشعوب .

هذا التغير بشكله العفوي ، وقبل أن تتدخل فيه مبادرات البشر ، يتجلى أولاً في أشكاله السلبية :فالتوتر يزداد بسبب النمو المتفاوت للثورة العلمية التقنية الجديدة في مختلف البلاد .

ونحن في كل مرحلة من مراحل بحثنا قد شعرنا أن تحقيق الامكانات الناشئة من هـــذه الثورة يتطلب لاتكدساً كبيراً لرؤوس الأموال وحسب في سبيل انشاء مجموعات كبيرة اوتوماتية ، بل وأيضاً تكوين انتاجية للعمل راقية جداً ، ومنافذ داخلية وخارجية واسعة .

بيد أن ميراث الماضي ، أعني ميراث المرحلة الصناعية والاستعمارية ، هو من الشدة بحيث أن تفاوتات النمو هي بدورها كبيرة جداً ، وبحيث أن الثورة العلمية التقنية الجديدة قد أعقبت زيادة التفاوتات ، علماً بأن نقاط البـــدء هي أيضاً متفاوتة .

وانطلاقاً من معايير أساسية تحدد امكانية تقبل التحول : أي تراكم وتركز رؤوس الأموال،انتاجية العمل ، المنافذ الداخلية (وهي مرتبطة بالدخل القومي للفرد) ، تملك الوسائل الأساسية للمراقبة الآلية الذاتية ،انطلاقاً من هذه المعايير يمكن أن نميز ثلاثة مستويات واضحة جداً، ومنفصلة بعضها عن بعض بهوات سحيقة في عالمنا الراهن .

فهناك أولا البلاد « الآخـذة في طريق النمو » وهي لاتملك ابداً ، أو لاتملك الا بدرجة ضعيفة الامكانات المحددة بالمعايير السابقة . ورغم الجهود التي تبذلها هذه البلاد لتعبيء مواردها الداخلية ، فان الشقة التي تفصلها عن البلاد المتقدمة ما تفتأ تتزايد عمقاً .

إن أسباب هذا الوضع سهلة على الكشف : فمنذ القرن السادس عشر عمل الاستعمار ، ومنذ منتصف القرن العشرين عمل الاستعمار الجديد ، كلاهما بشكل منظم ، على إبعاد كل امكانية تراكم لرؤوس الأموال في البلاد التي كانا يحتلانها ، على أن يكون هذا التكدس لحساب تلك البلاد ، وذلك في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، مستهدفين الاحتفاظ باحتكار التصنيع ، وبأن يجدا في تلك البلاد اليد العاملة والمواد الأوليـة بسعر رخيص ومنافذ لرؤوس أموالها ولصناعاتها الخاصة بها . في هذه الظروف ظل الدخل القومي للفرد في تلك البلدان منخفضاً جداً . ان صعوبة عدم التصنيع تتضح بثقلها على مستوى الحياة وعلى امكانات التنمية ، فالاسعار العالمية للمواد الأولية التي تنتجها تلك البلدان تظل محدودة بمعدلات لاتتيح لها أن تحقق تراكماً أولياً . والتصنيع بشكله الاستعماري الجديد هو في أغلب الأحيان ملحق باقتصاد البلد الذي « يقدم المساعدة » ، أكثر مما هو قاعدة مادية يتم الانطلاق منها نحو الاستقلال والتنميـة . إن الرسالة البابوية وعنوانها « تقدم الشعوب » Populorum Progressio قد أشارت بحق الى أنه في ظل النظام الراهن أصبحت الشعوب الغنية أكثر غنى ، والشعوب الفقيرة أكثر فقراً .

واليوم ، توجد بلاد يؤلف مجموعها أكثر من ثلثي سكان العالم المتخلف (أي اكثر من مليار انسان) يقلّ دخل الفرد فيها عن ١٠٠ دولار في السنة .

أما معونة البلاد المتقدمة والتي تشكل ١٪ من دخل هـــذه البلاد القومي ، فقد اتاحت بين ١٩٦٦ – ١٩٦٧ زيادة قدرها ٥٪ من الدخل القومي للبلاد الأقل تقدماً . بيد أننا اذا لاحظنا المعدل السنوي لزيادة السكان ، والبالغ ٢ – ٣ بالألف فإن ذلك يشكل زيادة فردية للقدرة الشرائية تبلغ حوالي ٢٫٥ دولار في السنة ، وهي زيادة غير ملحوظة عملياً ، بينما الدخل القومي للبلاد المتقدمة يزيد بسرعة اكبر بكثير . فهو بنسبة ٦٫٧٪ في المانيا الاتحادية ، و ٩٫١٪ في المانيا الديمقراطية ، و ٨٫٤٪ في الاتحاد السوفييتي .

لقد كان النتاج القومي الخام ، بالنسبة لكل فرد ، في أوروبا ســنة ١٩٥٢ ، أعلى بست مرات مما كان في البـــلاد المتخلفة . وهو في ١٩٦٧ أعلى بتسع مرات .

وفي القارة الأمريكية يبرز التناقض بحدة اكبر . فبينما يتجاوز الانتاج القومي الخام في الولايات المتحدة ٤٠٠٠ دولار للفرد ، نجده يتراوح بين ١٠٠ – ١٥٠ دولاراً في باراغواي ، وهو أقل بنسبة ٢٥ – ٤٠ مرة في بوليفيا .

ان هذا التفاوت المتزايد يشكل التوتر الأساسي الأول في عالم اليوم .

وثمة توتر آخر يحتدم بين البلاد المتقدمة بمجموعها (الرأسمالية أو الاشتراكية) من ناحية ، والولايات المتحدة من ناحية اخرى ولو عدنا الى المعايير التي أشرنا اليها سابقاً ، لما كانت ثمة حاجة الى البرهان على تقدم الولايات المتحدة في المعيارين الأولين : تمركز رؤوس الاموال ، وانتاجية العمل . ان انتاجية العمل في صناعة الولايات المتحدة هي أعلى بمرتين من انتاجية الاتحاد السوفييتي[1] . وفيما يتعلق بالمنافذ الداخلية

---

(١) راجع تيريخوف – « المباراة الاقتصادية بين الاشتراكية والرأسمالية » .
Terekhov - « La Compétition économique entre Socialisme et Capitalisme » La Nouvelle Revue Internationale № 3 , 1968 . p. 27 .

وبالنتاج القومي الخام للفرد ، فان الفارق صارخ : في ١٩٦٧ بلغ النتاج القومي الخام للفرد في الولايات المتحدة ٤٠٤٠ دولاراً ، بينما تراوح في أوروبا حول ٢٠٠٠ دولار في أكثر البلاد يسراً ، كفرنسا وألمانيا الغربية ، وانكلترا ؛ وهبط الى أقل من ١٠٠٠ دولار ، ففي اسبانيا هو (٨٣٠) ، وفي اليونان (٨٢٠)، وفي البرتغال (٤٩٠) . أما البلاد الاشتراكية نفسها ، فتقع بين هذه الحدود ، إذ يبلغ النتاج في الاتحاد السوفييتي (١٦٠٠) دولار ، كما يبلغ في اليابان (١١٥٠) دولاراً .

وليس توزع الأجهزة الإلكترونية الناظمة[٢] Ordinateurs بأقل دلالة . ففي ١٩٦٨ كان عدد الأجهزة المستعملة في العالم ٦٥٠٠٠ جهاز ؛ منها الثلثان ، أي ٤٢٠٠٠ جهاز تعمل في الولايات المتحدة ، مقابل ١٣٠٠٠ جهاز لمجموع أوروبا الغربية (٣٨٠٠ في ألمانيا الغربية ، ٢٩٠٠ في بريطانيا ، ٢٧٠٠ في فرنسا) و ٤٠٠٠ في الاتحاد السوفييتي ، و ٣٤٠٠ في اليابان .

فالثورة العلمية التقنية الجديدة تباعد إذن الفوارق في توزيع الثروة والامكانات ، بحيث تقسم العالم الى ثلاثة أقسام ، لاتتناقص المسافات بينها ، بل بالعكس تتزايد . ذلك أن الاتحاد السوفييتي نفسه وقد حقق خلال فترة طويلة ، تنمية تجاوز نسقها بكثير نسق تنمية الولايات المتحدة ، اخذ يفقد الآن هذا التفوق على الصعيد الاقتصادي وعلى الصعيد العلمي والتقني ، إذ بدأ الانحدار في أواخر الستينات .

---

(٢) شاعت تسميتها باسم « العقول الالكترونية » .

ان المشكلة الأساسية للعلاقات الدولية ، في هـذا الثلث الأخير من القرن ، هي تقليص الفوارق ، من أجل خفض التوترات .

* * *

وليس ذلك بالأمر الطوباوي ، أولاً لأن الامكانات التقنية متوفرة لبلوغ الغاية ، ثانياً لأن الجهد المطلوب من البلاد المتقدمة ليس جهداً معنوياً ، بل هو يتفق ومصالحها ، إذ أن التخلف في جزء من العالم يوقف أو يشوه التقـدم في سائر الأجزاء .

وأول شرط التصدي لهذه المشكلة وحلها، هو القبول بأن نرى الالتواءات الفعلية، وألا نبدل الواقع برغباتنا ومخاوفنا، على غرار أولئك المفكرين النظريين الغربيين الذين لم يفتأوا يتنبأون منذ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٧ ، سنة تلو الأخرى ، بتردي الاشتراكية الى الفوضى ، أو أولئك الموجودين في الطرف الآخر ، الذين لم يفتأوا يقللون من شأن تناقضات النظام الاشتراكي ، ومن شأن إمكانات الرأسمالية للتكيف مع نمو القوى الانتاجية .

فإذا أمكن اجتياز حاجز الأوهام الأولي لدى الكبار (ولدى حلفائهم أو تابعيهم) أعني إذا توقف كل فريق عن الاعتقاد بحتمية الدمار الذاتي للفريق الآخر ، فثمة أوهام أخرى ينبغي مكافحتها فيما يتعلق بالبلاد المتخلفة . ان نزعة الزهو هنا ينبغي شجبها . وقد بيّنـا من قبـل ، أن نموذج التنمية الخـاص بالصين يطرح مشكلة تعـدد معايير التنمية . فلا يكفي أن تبدّد بلادُ « الغرب » (بما فيها البلاد الاشتراكية) الوهم الاستعماري الزاعم

أنها هي وحدها مراكز مبادهة تاريخية ، وهي وحدها مبدعة للقيم . ان إفادة الصينيين من الزيادة السكانية الهائلة ، لتحقيق تراكم أولي بطرق أخرى غير طرق الرأسمالية الأوروبية في مطلع القرن التاسع عشر ، أو غير طرق الاشتراكية السوفييتية في مطلع القرن العشرين ، ينبغي أن تحملنا على التفكير في الإمكانات الجديدة كل الجدة لتحقيق التنمية في بلاد يتزايد سكانها بنسبة أسرع بكثير مما هي في «الغرب» ، بلاد تستخدم مفاهيم أخرى عن العالم والانسان من أجل تحقيق هذه الإمكانات تحقيقاً جديداً كل الجدة أيضاً . ان حوار الحضارات مازال في بدايته .

وحين يكون الأمر أمر حوار فعلي ، أمر لقاء يكون فيه كل فريق مقتنعاً منذ البدء أن عليه أن يتعلم من الآخر ، حينئذ فقط يمكن تخفيف التوترات ، وذلك بسدّ الثغرات ، وبالانطلاق نحو اندماج العالم ببعضه اندماجاً يجعل وجودَه رهناً به ، في المرحلة الراهنة من النمو التقني .

ان الامكانات الموضوعة لحل هذه التوترات وسدّ هذه الثغرات تنمو كل يوم : فظهور مصادر جديدة للطاقة (وليست الطاقة الفردية سوى مصدر واحد من بين مصادر أخرى الآن وحتى نهاية القرن) ومصادر جديدة للتغذية عن طريق الزراعة الصحيحة واستخدام نباتات وكيمياء المحيطات وعن طريق مركبات الكلوروفيل والبروتين ، والامكانات الجديدة لتوزيع الطاقة ونقلها والمنتجات والمعلومات ، ان هذا التوقع ، على تواضعه ، يضمن لنا أنه حتى في حال تجاوز مجموع سكان العالم ، كما هو منتظر ، خمسة مليارات نسمة في سنة ٢٠٠٠ ، فإن مشكلات التغذية ، ومعها مشكلات التجهيزات الاقتصادية لجميع بلاد العالم ، ستكون ممكنة الحل في أمد قريب .

ان هذا الحل ينطوي على وجوب التخلي عن سياسة الكتل التي هي من بقايا الماضي ، من عصر الصناعة . فحين كانت مختلف البلاد لا تتمتع إلا بأسلحة اتفاقية ، كان صحيحاً أن جمع عدد من فرق المشاة ، والمدفعية ، والدبابات ، والطائرات ، يلعب دوراً لا يستهان به ، وأن هذا التفوق الكمي يمكن أن يكون حاسماً . أما في عصر القنابل الهيدروجينية والصواريخ ، فإن سياسة الكتل غدت بالية ، حتى من وجهة حربية .

ان المسؤولية الأولى في إقامة الكتل تقع بالأساس على العالم الرأسمالي ، الذي أمل أن « يدحر » ، ثم أن « يوقف » الشيوعية ، فنظم نفسه عسكرياً ، تلبية لنداء تشرشل في فلتون « بالولايات المتحدة » منذ ١٩٤٦ ، كي يخوض نضالاً طبقياً على المستوى الدولي بقيادة الولايات المتحدة ، وبواسطة « حلف الأطلسي » واستتبع هذا الائتلاف العدواني قيام حلف وارسو المناوىء .

لقد انشئت الكتل على أساس طبقي وأساس ايديولوجي . وبينت التجربة أن جميع الأعمال التي جرت داخل هذه الكتل كانت معاكسة للأهداف التي كان يراد بلوغها . فقد قدّمت الولايات المتحدة نفسها الى العالم كبطل للحرية ، وكان لتدخلها في غواتيمالا ، وفي جمهورية الدومينيك ، وفي فيتنام ، بغض النظر عن تدخلاتها الخفية ، من الكونغو الى اليونان ، وإلى أمريكا اللاتينية بأسرها ، نتيجة أساسية هي انتصار أشد القوى رجعية - إن لم تكن قوى فاشستية - ضد حرية الشعوب .

أما الكتلة المعارضة ، كتلة حلف وارسو ، فقد لعبت دوراً أقل أذى بما لاحدّ له ، غير أن تدخلاتها كانت مستوحاة دوماً من الحرص على فرض النموذج المتسلط للاشتراكية التي وضعتها موسكو على أشد الفرقاء ضعفاً . وقد

أدى هذا التوجيه إلى نتائج رهيبة . فعلى الصعيد الاقتصادي ، يشكل الإفراط المستمر في تقييم عملات بلاد السوق الاشتراكية المشتركة (كوميكون) عائقاً هاماً في وجه العلاقات ، التجارية وسواها ، مع بقية العالم .

إن لا معقولية سياسة الكتل هذه ، على الصعيد العسكري ، والاقتصادي ، والايديولوجي ، تزداد وضوحاً .

وفيما يخص الولايات المتحدة ، فإن التجربة الفيتنامية حاسمة . ان أعتى آلة حربية في جميع الأزمنة قد أحبطها شعب صغير ، يناضل كله في سبيل استقلاله ، ويلقى الدعم المادي من الاتحاد السوفييتي والصين معاً . بسبب هذه الحرب أصاب الاقتصاد الأمريكي تشوه عميق ، كما تقوضت مكانة أمريكا في العالم .

وقد أقيم الدليل بذلك على أن الولايات المتحدة لا تطبق سوى المنتجات النخبة لقوتها الحقيقية ، في طريق الامبريالية والاستعمار الجديد فهي لا تستخدم إلا « الانهيالات » العسكرية والاقتصادية لتفوقها الحقيقي ، وهو تفوق علمي تقني .

إن الولايات المتحدة لم تعد تستطيع الاكتفاء اليوم الى قارتها باسم صيغة جديدة « لمبدأ مونرو » .

ان تطلعها عالمي . لا لكي تفرض هيمنتها العسكرية كما كان يتصور برنهام Burnham . ولا لكي تعيد الحياة الى استعمار اقتصادي ، أفلس في العالم كله . ولا لكي تدعي قيادة حرب صليبية ايديولوجية ، بينما هي أكثر البلاد افتقاراً الى الايديولوجيا ، وأكثرها عجزاً عن رسم أهداف انسانية لنفسها .

ان الحل بالنسبة لها ليس في « التخلي » ، بل في شكل من « الالتزام » جديد كل الجدة ، يقوم دون مقابل سياسي ، على نشر المعارف العلمية والتقنية ، ليست الثروة الاقتصادية ولا الطاقة العسكرية سوى نتاج تحتي لها .

هكذا تستطيع الولايات المتحدة ان تشغل بنسبة ١٠٠ ٪ جهازها الانتاجي الجبار ، وان تنشىء شروط « تفجر » اقتصادي لامثيل له في التاريخ.

اما في فيما يخص الاتحاد السوفييتي، فان استمراره في نظام القمع في بلاده، وفي داخل الكتلة التي يسيطر عليها ، دون أن يقيم الشروط السياسية لنجاح اصلاحاته الاقتصادية ، معناه انه يحكم على نفسه بايقاف تطوره الخاص ، وبتخلفه من جديد عن الولايات المتحدة ، وباهماله الى مستقبل غير محدد ، وبعيد جداً بالتأكيد ، امكانية تحقيق الاشتراكية كلياً والانتقال الى الشيوعية . ان تجربة التدخل في تشيكوسلوفاكيا قد بينت كيف يؤدي هذا السلوك الى إضعاف البلاد الأعضاء في حلف وارسو اضعافاً عسكرياً ، والى تجميد اقتصاد هذا البلد الذي كان حتى ذاك الحين أكثر بلاد المجموعة تقدماً، أعني تشيكوسلوفاكيا، والى انقسام المعسكر الاشتراكي ايديولوجياً ، والى اضاعة اشعاع الاشتراكية في اوروبا كلها .

ومما له دلالته ان سياسة الكتل هذه تعاني فشلاً إثر فشل لدى كلا الفريقين . ان تمزق العالم الامبريالي تحت انقضاضات حركات التحرر الوطني، وتفتت حلف جنوب شرقي آسيا ، وحلف شمال الأطلسي في اوروبا بسبب حركة انسحاب فرنسا ، والخلافات داخل «اوروبا»، إن ذلك كله قد سدّد ضربات محسوسة لادعاء أمريكا السيطرة على العالم الرأسمالي .

ان الهزات في المعسكر الاشتراكي ، وفي مجموعة وارسو التي قامت لمواجهة تهديدات حلف الأطلسي ، ليست أقل عنفاً . ولئن كان اجتياح تشيكوسلوفاكيا ونتائجه ، هو ابرزها ، فان الشقاقات عميقة : حدث اول انشقاق

في العالم الاشتراكي ، بسبب طرد يوغوسلافيا سنة ١٩٤٨ ، ثم حدث الانشقاق الصيني ، فأعطى التناقضات بُعداً شمل الكرة الأرضية ، ثم جـاء تطور القوى المحيطية في المجموعة الاقتصادية للبلاد الاشتراكية (كوميكون) ، وقد هزتها رومانيا .

ان التفتت المحتوم للكتل يقدم الدليل على عجز هذه الطريقة عن حل المشكلات الراهنة ، أي عن تقليص التوتر الذي يسببه وجود ثلاثة مستويات للتنمية .

• • •

ان الدمج لا يمكن أن يتم بطرق إخضاع الضعفاء للأقوياء إخضاعاً آلياً ، ولا باضافة قوى عدد من الاتباع الى قوة الكبير .

ثم ان الدمج لا يمكن أن يتم بمجرد تعايش سلمي يقوم حصراً على مباراة اقتصادية يستهدف المحرومون منها « بلوغ ، بل وتجاوز » الخصم الموجود في أعلى السلم .

من هنا نرى أن ثمة سيراً في طريق مسدودة حين نعطي تطلعاً الاتحـاد السوفييتي يقوم ، كما فعل على التوالي كل من ستالين ، وخروتشوف ، وبرجنيف ، على « بلوغ ثم تجاوز » الولايات المتحدة ، بينما المهمـة الخاصة للبلد الاشتراكي ليست في هذه المباراة الكمية الصرفة مع البلاد الرأسمالية المتقدمة ، بل في انشاء نموذج جديد من الحضارة يقدم نقيضاً واقعياً للنظام الرأسمالي الذي يسيطر عليه القانون الأعمى للتنمية من أجل التنمية ، والذي يعجز عن استهداف غاية انسانية صرفة .

وفي الوقت نفسه ، وإن يكن ذلك في نطاق آخر مختلف كلياً عن السابق ، لا يمكن ان نقترح على أوربا ، مثلما فعل سرفان شرايبر J. J. Servan - Schreiber في سبيل حفاظها على استقلالها ، أن تعيد ما فعلته الولايات المتحدة نفسها . ان سياسة كهذه لا تؤدي باوروبا الا الى تبعية اكثر اذعاناً لأمريكا .

ان المشكلة الرئيسية هي أن نتصور ونحقق أشكالاً جديدة ، فريدة ، من الدمج ، يمكنها وحدها أن تتيح التجاوز التاريخي للتفاوتات التي تفصل بين البلاد الصناعية والبلاد المتخلفة ـ بين الولايات المتحدة وأوربا .

والمبادرة الحاسمة ، لكل بلد ، هي تلك التي تتجلى بوعيه لما يمكن أن يكون عليه اسهامه الخاص : ان هذا الاسهام بالنسبة للولايات المتحدة ليس هو القوة العسكرية (التي كانت فشلاً ذريعاً) ، ولا الاستعمار الاقتصادي (الذي أثار ضد الولايات المتحدة غضب قارات بأسرها ، من أمريكا اللاتينية الى آسيا) ، بل هو قوة الازدهار الحقيقية لطاقتها العلمية والتقنية . والاسهام بالنسبة للاتحاد السوفيتي ليس هو في تشبثه بأي ثمن وبلا هوادة بأسطورة النموذج الوحيد الكامل لبناء الاشتراكية ، بل في اجرائه مراجعة لا غنى عنها ، مؤلمة ، تسمح له بأن يعطي مجدداً ثورة أكتوبر مكانتهـــا كخصم وحيد فعلي للنظام الرأسمالي ، ويعطي الاشتراكية إشعاعها كنظام وحيد قادر على حماية استقلال الانسان ، في الثورة العلمية التقنية الجديدة ، وعلى وضع أهداف للتنمية ذات طابع انساني صرف .

أما الصين ، فمن المؤسف جداً أن تعزل عن العالم بأسره ، بدلاً من أن تساعد بلاداً أخرى ، وأحزاباً اشتراكية أخرى ، على أن تفهم بصورة أفضل من خلال التجربة الصينية ، التنوع الضروري لنماذج الاشتراكية ولمعايير التنمية ،

وضرورة الابتعاد عن قيم وأشكال الحضارة والاشتراكية الـتي تفتحت في العالم الغربي .

ويمكننا أن نستمر في هذا التعداد المبادرات التي ينبغي أن يقوم بها كل بلد . غير أن ما يهم هو أن نشير إلى أن القضية ليست هنا قضية دعوة صالحة : ففي كل بلد من هذه البلاد (رغم أن المعلومات عن الصين ضئيلة) بدأ بعض الناس يعون هذه المشكلات ، وخاصة من بين اولئك الذين يؤدون دوراً بارزاً ، كالعلماء ، في انشاء الطاقة التقنية لوطنهم ، وهم يعون الطرق التي يمكن سلوكها لتكون أعمالهم مجدية كلياً . وفي الولايات المتحدة ثمة كثير من الباحثين النوويين وعلماء الاقتصاد ، والاجتماع ، والطلاب والجامعيين ، والمناضلين ، يتوقون اليوم الى تجديد الحركة النقابية ويجمعون قوى قادرة على احباط المركب العسكري الصناعي . وفي الاتحاد السوفييتي ثمة فيزيائيون بارزون ، وكتاب كبار ، ومناضلون لا حصر لهم ، يعون خطر المركب البيروقراطي العسكري .

وفي بلاد أخرى ، إذ تكون مهمة المعارضة أقل صعوبة ، كما في فرنسا وإيطاليا ، فإن قوى التجديد عديدة ضد تيبس الأجهزة . وهي تستطيع أن تناضل بنجاح لتحطم الانتماء الى الكتل ولتفرض عدم الانحياز .

بذلك يأخذ صراع الطبقات أشكالاً جديدة ، على المستوى الدولي .

ان هناك شبيبة تظهر اليوم ، وقد بدأت حياتها في الوقت الذي أوجدت فيه الثورة العلمية التقنية الجديدة ، للجيل الجديد ، شروط تفكير ، وعمل ، وحياة تختلف اختلافاً جذرياً عن شروط الأجيال السابقة .

هل تستطيع هذه القوى أن تتفق وتخوض ، وهي متجاوزة جميع خلافاتها ،

الصراع الطبقي بالكتلة التاريخية الجديدة ، ولنعطي القدوة عن هـذا الدمج من خلال التنوع ، وعن هذا التقسيم الدولي للعمل ، الذي يستطيع أن يجعل من القرن الواحد والعشرين قرن ثورة دائمة لشروط الحياة وآفاق الانسان ؟

ان المبادرة الكبرى ، في هذا المستوى الدولي ، هي المبادرة التي ستتيح قيام اعلام متبادل ، ومناقشة .

والغرض هو إبدال علاقات المنافسة والخصومات والتحديات الهمجية ، في العلاقات الدولية ، وهي التي ولّدها صراع الطبقات في المستوى الدولي ، بعلاقات تطابق متطلبات وإمكانات الثورة العلمية التقنية الجديدة ، أي شكلاً جديداً ، لا سابقة له ، من الاشتراكية ، يتطلب انشاؤه مبادرات تاريخية جديدة في المستوى النظري والمستوى العملي .

أما بالنسبة للطبقة العاملة والكتلة التاريخية الجديدة ، فإن المشكلة التي يستتبع حلها حل سائر المشكلات ، هي المشكلة التي يطرحها **التفاوت المتزايد في مستويات التنمية** ، والتوتر الناجم عنه .

فما لم نتصد لهذه المشكلة الأساسية ، فعبثاً نعتقد بجدوى مفاوضة معجزة ، تنقذ السلام والمستقبل دون أن تبدل شيئاً من العلاقات الموضوعية القائمة حالياً .

لقد فكرنا حتى الآن ، بكل شيء ، وحسب البلاد ، بصيغ السيطرة لدى الأقوياء ، أو صيغ الالحاق عند الضعفاء ، وفي كلتا الحالين ، بصيغ الكتل أو المعسكرات المتجابهة ، سواء كانت مرحلة في طريق السيطرة ، أو أداة مقاومة السيطرة ، والحاق ممكن .

على هذا الأساس ، فإن جميع المفاوضات الضرورية ، حول المشكلات

التي تتعلق بها حياة الحضارة أو موتها ، آيلة الى الفشل أو الى العجز ، سواء كان الأمر أمر المفاوضات الكبرى على نزع السلاح النووي ، أو مساعدة التخلف ، أو أمر المسائل التي تعالجها هيئة الأمم المتحدة ، وأبرز مثال لها ، وأكثرها حداثة مسألة الشرق الأوسط التي تُطرح فيها ، في نهـــاية المطاف ، المشكلة الأساسية للعلاقات بين التقدم والتخلف . انها تُطرح هنا في صيغ من التعقيد الكبير ، إذ أن الأوضاع قد أنشئت في زمن الاستعمار ، من قبل الدول العظمى التي تريد أن تحل كل شيء على اكتاف البلاد المستعمَرة ، ولأن جميع الكتل داخلة في الصراع الراهن ؛ بحيث أنه حتى لو تم اتفاق حول الموضوع ، على الورق في أقل تقدير ، فإن الجماعة الدولية عاجزة عن تحويله الى واقع .

ان العلاقات الفعلية بين مستويات التقدم وبـــين الكتل التي تحدثها ، وهي علاقات موجودة تحت الاتفاقات المجردة ، تفرض منطقها المشخص ، أي حصارها .

هذه هي الحال في المستوى العالمي .

حقاً ان ثمة سياسة « عدم انحياز » تتأكد الآن خارج الكتل (رغم أن عدم الانحياز هذا هو ، لدى كثير من المسهمين فيه ، برنامج وأمنية ، اكثر بكثير مما هو واقع) ، تستهدف التخفيف من التناقضات في العلاقات الدولية ، تلك التناقضات الناشئة عن سياسة الكتل ، كما تستهدف استبعاد وسائل القوة ، وحماية المساواة في الحقوق ، وحق تقرير المصير لكل شعب ، وإقامة تعاون بين البلاد ، بمعزل عن النظام الخاص بكل منها .

ومنذ إعلان مبادىء باندونغ ، في نيسان (ابريـــل) ١٩٥٥ ، جرى التأكيد مجدداً على هـذه الأهداف ، التي هي أهداف وثيقة الأمم المتحدة ، في

الدورة الخامسة عشرة للجمعية العامـــة للأمم المتحدة ، وفي مؤتمرات البلاد غير المنحازة ، في بلغراد سنة ١٩٦١ ، وفي القاهرة سنة ١٩٦٢ وسنة ١٩٦٤ ، وفي نيودلهي سنة ١٩٦٦ ، وفي المؤتمر العالمي الأول للتجارة والتنمية الذي دعت الى عقده منظمة الأمم المتحدة في جنيف سنة ١٩٦٤ .

ولا ريب أنه بفضل هذه البلاد « غير المنحازة » ، وبفضل ضغطها داخل هيئة الأمم المتحدة تمت صياغة أنسب الأهداف لاقامة علاقات جديدة بين الأمم. وقد اقترحت تدابير مشخصة لذلك : رفع سعر المنتجات الأولية في السوق العالمية ، وهي المنتجات التي تصدرها البلاد المتخلفة ـ وضع أشكال جديدة من التقسيم الدولي للعمل ـ تنظيم المساعدة بواسطة هيئات دولية بغية تجنب العلاقات الثنائية الطرف المشحونة دوماً بنزعة استعمارية جديدة ، وبغية تجنب سيطرة المساهم الأقوى على تلك الهيئات الدولية في هـــذه المساعدة . وقد صيغت ايضاً مقترحات ممتازة ترمي الى نقل اعتمادات التسلح الى التجهيزات الاقتصادية للبلاد المعوزة .

إن هذه المجموعة من المشاريع العملية كانت وما تزال صالحة كلياً ، كما أن تطبيقها سيكون مجدياً تماماً .

غير أن المشكلة هي بالضبط مشكلة تطبيقها . فمادامت الاختلافات العميقة في التنمية قائمة ، ومادامت علاقات القوة الناجمة عنها ، والايديولوجيات الناشئة في كل بلد وفي كل معسكر عن هـــذه التفاوتات ، موجودة ، فان أولئك الذين يملكون العدد والحق ـ كما هي حال العـــالم الثالث ـ لا يملكون في الوقت ذاته القوة .

إن كل معسكر يعاني ، كصدمة عكسية ، من النتائج الضارة للأيديولوجيا

التي صنعها كي يبرر بها النشاط الأعمى لاقتصاده وسياسته . ولقد حاولنا ، من خلال هذا البحث ، أن نطرح هذه المشكلة بالنسبة لكل بلد كبير ، ولكل اتجاه كبير .

حاولنا أن نبين على التوالي كيف أن الايديولوجيا المناهضة للشيوعية في الولايات المتحدة ، بوصفها تبريراً لسباق التسلح ، وللحرب في فيتنام ، ولمساندة أشد الدكتاتوريات رجعية في العالم بأسره ، تخفي تشوهاً عميقـــاً في الاقتصاد الامريكي - وسياسة سيطرة لم تتأكد بمثل ما تأكدت به من وقاحة ، في أيام بيرنهام Burnham سنة ١٩٤٨ ، واستمرت مع ذلك تغذي السلوك الامريكي - وقمعاً لم يعد يأخذ الشكل المتطرف للماك كارثية ، ولكنه يمكن أن ينفجر في أية لحظة انفجارات جديدة - وعجزاً عن حل المشكلة الزنجية ومشكلة البؤس ومشكلة تمرد الشبيبة ، وتتجه "عمياء مشوهاء" لم تعد لها أية غاية انسانية ، بل تبدد امكاناتها اذ تستخدم طاقتها الانتاجية استخداماً جزئياً جداً ، كما تستخدم إمكاناتها في البحث والابداع استخداماً متحيزاً جداً ،

بينّا ، فيما يخص "الاتحاد السوفيتي ، كيف أن حالة الطوارىء أولاً ، ثم حمى الحصار التي ولدتها ، حتى بعد ان فك الطوق الخارجي ، وكيف ان الضرورة الطويلة الأمد ، ثم الهوس ، « للحاق والتجاوز » قد قادت هذا البلد الى تشوهات في اقتصاده نظيرة للتشوهات السابقة ، وذلك بسبب عبء السباق النووي والفضائي (وهو هنا أشد وطأة مما هو في الولايات المتحدة لأن مستوى الدخل في الاتحاد السوفيتي أقل ارتفاعاً بكثير) ، كما أدت به الى انكفاء ايديولوجي وعديد تجاه خشيته من « التخريب الايديولوجي » ، وبالتـــالي الى تأخر مخيف في تنمية البنى

الفوقية ، اضافة الى مفهوم عن الدولة والحزب مناهض للعلم ومناهض الديمقراطية، مفهوم كان من نتائجه صعوبة تحقيق الاصلاح الاقتصادي ، وكبح الثورة العلمية التقنية الجديدة ، التي هي شرط لتحقيق الاشتراكية كلياً والانتقال الى الشيوعية .

ان ملاحظات مماثلة لهذه تصح على الصين ، كما تصح على بلاد أخرى كثيرة.

ثمة طرق مسدودة .

ومنهـــا طريق محاولات السيطرة ، التي عليها الادعاء بايقاف أو دحر الشيوعية في العالم بأسره .

ومنها طريق محاولات اللحاق أو السبق ، في « منافسة » تغـذي الوهم المتطرف بيلشفة أمريكا نفسها .

ومنها طريق محاولات تجاوز التخلف ، وذلك باعـادة سلوك الدرب الذي اجتازته البلاد المتقدمة ، وبالطرق ذاتها : لقد ثبت بالدليل القاطع أنه يستحيـل تجاوز التخلف بطريق رأسمالية ، وليس ثمة بلد واحد في « العالم الثالث » حصل بهذه الطريقة ، على استقلال حقيقي ، وعلى ارتفاع محسوس في طاقته الاقتصادية وفي مستوى حياته . ان بلاد أمريكا اللاتينية ، وأفريقيا ، وآسية المنتمية الى العالم الرأسمالي ، مازالت تعاني من التخلف . والاستثناءات الوحيدة هي الصـــين ، وفيتنام ، وكوبا ، إذ نجحت في « الانفصال » ، لأنهـــا بدّلت تبديلاً أساسياً العلاقات الاجتماعية ، والتزمت ببناء الاشتراكية وفق نماذج خاصة بكل منها ، ومختلفة عن النماذج الاوروبية . ورغم أن لقب « اشتراكي » يُعبث به اليوم في بلاد تطبق وصفات من الاقتصاد الموجه ، وتتكيف في الوقت ذاته مع قوانـــين الاستعمار الجديد ، فإن ثمة بعض التجارب تحاول ان تتخلص من تلك النزعـــة الوهمية ومن هذه الهيمنة ، إذ تختار « طريقاً للتنمية غير رأسمالية » ، وتلك هي

بخاصة حال الجمهورية العربية المتحدة ، وسوريه ، والجزائر - في عهد ابن بللا على الأخص - وحال بلد مالي قبـــل الانقلاب الاستعماري الجـــديد الذي أعاد هذا البلد الى الفوضى ، وحال غينيا بالرغم من محاولات خطيرة لقلب هذه الحركة ، يمكن أن تقلب الأمور في أية لحظة ، وحال بعض البلاد الأخرى.

ان الثورة العلمية التقنية الجديدة ، في عالمنا المضطرب ،إذ تفتح امكانات عظيمة ، دونها بكثير إمكانات الماضي ، انما تعطي المشكلات الطبقيـة ابعاداً ضخمة ومقلقة . فالصيغ الأوتوماتية القديمة المتروكة لقوة العطالة ، قد فاقمت ،في نشاطها الأعمى ، التفاوتات والتوترات .

* * *

ان المبادرة في هذا المستوى لا يمكن ان تتجلى في صياغة برنامج ، بل في تبديل المناهج ، وتحقيق الاتجاه المعاكس الضروري

ان البرامج ، كما رأينا ، موجودة بكثرة ، وقد اقتُرحت تدابير ممتازة.

أما تبديل المناهج فيتجلى في مزيد من التفكير في شروط التحقيق .

ان المشكلات تنشأ في مستوى كل بلد . فهنـا ، وهنا فقط ، يمكن توفير الشروط وفي هذا المجال ينبغي ان نعمل .

ذلك لا يتم فقط بواسطة هيئة دولية ، اذ ، كما رأينـــا ، ليست القوة بالضرورة الى جانب العدد والحق .

ان ماينبغي عمله ، في كل بلد ، هو ان نساعد على ايقـــاظ الوعي على المشكلات الجديدة التي تطرحها الثورة العلمية التقنية الجديدة ، وأن نعبىء الرأي

العام ، وفي طليعته الطبقة العاملة والكتلة التاريخية الجديدة ، وذلك بايقاظ الوعي على هذه المشكلات ، وبتقديم معلومات موضوعية عن المحاولات التي تجري في البلاد الاخرى ، في الاتجاه ذاته .

ولكي تكون هذه التعبئة مجدية ، يجب أن تحرك بالدرجة الأولى اكثر العناصر ديناميكية من « الكتلة التاريخية » الجديدة التي نشأت من التحول الكبير .

ان طرافة هذه الحركة تتجلى في نزوعها الى تحقيق وحدة العالم والانسان لابطريق السيطرة او التسامح السلبي ، أو النمطية الواحدة ، بل بعملية دمج تتيح تحقيق وحدة سيمفونية ، ينمو فيها كل شعب وكل نظام وفق قانونه الخاص . ومن الخيال الطوباني ان نتوقع السلام عن طريق تخلي الاتحاد السوفييتي عن عن الاشتراكية ، أو عن طريق قلب الرأسمالية في الولايات المتحدة ، إذ أن مابقي لدينا من زمن لايقاف الكوارث الناجمة عن المجاعة والتسلح هو عشر سنوات في أقصى الحدود .

إن ماهو ممكن الآن فوراً ، هو أن نضغط في اتجاه رأسمالية ذات أهداف في الولايات المتحدة ، وفي اتجاه اشتراكية ذات طابع ديمقراطي في الاتحاد السوفييتي ، وفي البحث عن معايير جديدة ومناهج جديدة للتنمية في العالم الثالث .

وحتى تكون الوسائل مجدية ، فهي لاتستطيع ان تتناقض مع الاهداف المنشودة : فلا برلمان عالمياً ، ولا ادارة عالمية ببداهة أكثر .

ان المداولات ضرورية لايقاظ الوعي على المشكلات الناشئة ، بجميع أبعادها وجميع نتائجها . فالمرحلة الأولى لايمكن ان تكون الا مرحلة المبادرة

بإقامة حوار حقيقي بين الحضارات : بين حضارات الشـرق ، والغرب ، والجنوب . ومنظمة الحوار والمداولة الدولية ليس غرضها صياغة نظريات ذات طابع توجيهي أو آمر ، بل استخلاص موضوعات البحث والتأمل .

ومن حيث انشاؤها ، ينبغي ألا تتكون من « مندوبين » رسميين عن الدول ، والاحزاب ، والمنظمات المهنية او الثقافية . ان عليها ان تستبعد أيّ عضو ينتمي الى هذه او تلك من المؤسسات المذكورة أو يتبوأ فيها وظيفة بارزة ، غير انه لايجوز له ان يشارك في المنظمة بصفته هذه . ان اسهامه فيهـا لايقاس بوظيفته بل بمشاركته في طرح أو في حل المشكلات ، او في المعلومات التي يحملها .

وتستطيع الندوات غير الشكلية وغير الدورية ، تلك التي تنعقد لبحث مشكلة خاصة ان تجسد هذه المداولة ، وتسهّل حركة حرة للافكار ، وإنضاجاً لمركبات مؤقتة يعجّل نشرها وتبسيطها في ايقاظ وعي ملايين الرجال والنساء .

لابدّ إذن من وجود نشرة دائمة للتعبير ، مجلة دولية لاتستهدف الجدل بل الاستطلاع . تعطي في كل آن نظرة اجمالية عن التحولات الجارية ، عن فعلها المتبادل ، عن المبادرات الممكنة والضرورية في تبدل العلاقات البشرية ، لكي تتمكن الثورة العلمية التقنية الجديدة من الانتشار كلياً وبجميع نتائجها ، وفي الوقت ذاته لكي تكون صالحة ، لا لتكوين ضياع جديد ، بل لتكوين شروط التفتح الكامل للانسان ، ولكل فرد .

ومثل هذا الجهد الهادف للاعلام ، والتركيب ، والاستطلاع ، سيؤدي فيه دوراً رئيسياً اولئك الذين هم اليوم حملة القوة الحاسمة لتحول العالم ، وفي طليعتهم العلماء والباحثون .

وسيكون ميسوراً بالطبع التهكم على ماسيسميه بعضهم استخفافاً باسم

« أمية المثقفين والتكنوقراطيين » . بيد أن صفة المشروع ذاتها تستبعد أمثال هذه المقارنات . ذلك بأنه أولاً لايهدف الى اعطاء أحد أي توجيه أو ارشاد . ومطمحه الوحيد هو استجابته الى الرغبة في وجود وعي منظم للتغيير . فليست القضية إذن أن يحل محلّ الدول ، او الاحزاب ، أو الكنائس ، أو النقابات ، أو المؤسسات الدولية الكبرى لمنظمة الامم المتحدة أو اليونسكو .

ان السير نحو الاشتراكية في البلاد المتقدمة ، وفي عصر الثورة العلمية التقنية الجديدة ، لم يعد يبرّ بالشعار الذي ظهر في عصر ، وفي بلاد طغت عليها الريفية : شعار تحالف العمال والفلاحين . ان المهمة الاولى في تكوين « الكتلة التاريخية » الجديدة ، المهمة الحاسمة بالنسبة للمستقبل ، هي اتحاد قوى العمل والثقافة .

ان تشكل الكتل التاريخية الجديدة يتجلى بصورة مختلفة في البلاد النامية بسبب بنيتها الطبقية ، ولسنا ندّعي بأن لدينا مفتاح هذه المشكلة (مثلما لاندّعي بأن لدينا الجواب عن جميع الاسئلة التي طرحناها في هذا البحث) ، غير أن التفكير في هذه المشكلة يصبح عسيراً إذا لم نتصور هذه البـــلاد تطوراً الا في صورة تكرار للمراحل التي مرت بها البلاد « الغربية » في القرنين التاسع عشر والعشرين . ومثلما بيّنت الثورة الصينية أن من الممكن الانتقال مباشرة من مجتمع ريفي – إقطاعي الى الاشتراكية ، دون المرور بمرحلة الرأسمالية ، فليس مستبعداً أن يتم الخلاص من التأخر الاقتصادي والتقني ، لابتصنيع وفق النموذج القديم ، بل بدخول الثورة العلمية التقنية الجديدة بصورة غير مباشرة . ان مسألة تنوع معايير التطور مطروحة في جميع المستويات . وفي البلاد المتقدمة ، ليست القضية أن نستبدل بالمفهوم الماركسي عن التناقض والصراع الطبقي ، في العلاقات

الدولية وفي كل بلد ، نظرية في تفاوت التطور ، كما ان القضية ليست في وضعها فوق بعضهما ، بل في وصلهما ببعضهما ، وبيان كيف أن هذا التفاوت في التطور في عصر الثورة العلمية التقنية الجديدة ، يتطلب أشكالاً جديدة من الصراع لمصلحة الطبقة العاملة والكتلة التاريخية الجديدة . ان التقنية لا نفكر بها في داخل التقنية ، بل في نطاق اكثر اتساعاً ، هو نطاق الصراع الطبقي الذي يستطيع وحده أن يمنح هذه التقنية هدفها الاسمى ، وهو الهدف الذي كان لماركس الفضل الاول في تصوره : تحرير العمل ، وازالة استلاب الانسان .

لقد حاولنا أن نبين في هذا الكتاب المشكلة الأساسية ، بالنسبة لكل بلد ، وهي مساعدة « الكتلة التاريخية » الجديدة على أن تعي وحدتها ، وأن تلتحم فيما بينها ، لأنها وحدها قادرة على فتح آفاق المستقبل ، وعلى زج المبادرات التاريخية الحاسمة ، وجمع القوى القادرة على إحداث التغيير .

ان الأفكار التي يتضمنها هذا الفصل تنزع فقط الى تخمين ما يمكن أن تسفر عنه مواصلة هذا التحليل للشروط الجديدة لصراع الطبقات على المستوى الدولي في عصر تستدعي فيه الثورة العلمية التقنية الجديدة من كل بلد أن يأخذ المبادرة الضرورية ليعي الكتلة التاريخية الجديدة التي يمكن انشاؤها .

ليست القضية إذن محاولة طوبائية لتكوين « هيئة عليا » فوق الطبقات وفوق الكتل التي تعبر ، في المستوى الدولي ، عن صراع هذه الطبقات .

ان القضية هي تنظيم على صعيد الكرة الأرضية للمداولة بين القوى الحاملة للمستقبل البشري ولمستقبل كل أمة : الطبقة العاملة ، والكتلة التاريخية الجديدة الناشئة في كل بلد .

المسرحية الشعرية في سورية

د. عمر الدقاق

ثمة حقيقة أولية لا جدال حولها ، هي ان العرب الأقدمين لم يعرفوا الفن المسرحي . غير ان الجدال الذي لا يكاد يهدأ حتى يثور من جديد هو لماذا لم يقتبس العرب هذا الفن من جيرانهم الاغريق كما اقتبسوا منطقهم وفلسفتهم؟ .

لا شك في ان الوثنية المغرقة في الادب اليوناني قد تصادمت مع عقيدة التوحيد العربية ، فلم يستسغ العرب آنئذ تعدد الآلهة فضلا عن تخاصمهم وما كانوا يتصفون به من حب وكره وحسد ومكر ، وتبذل وحقد . يضاف الى ذلك

ان اعلام الفلسفة العربية انفسهم مثل الفـــارابي وابن سينا وابن رشد لم يكن بوسعهم أن يفهموا بعض ما جاء في كتاب الشعر (بويطيقيا) لارسطو الذي ترجموه في اوائل العصر العباسي ، وهكذا تعثروا في فهم مصطلحات بدت لهم كالطلاسم ، لأن أرسطو كان يتحدث عن شؤون في المسرح لاعهد للعرب بمثلها . ومن هنا كان العرب يقيسون هذه المصطلحات على ما عندهم في الأدب ، فضلوا ضلالا بعيداً ،حتى لقد عربوا التراجيديا بأنها المدح ،والكوميديا بأنها الهجاء ،وضللوا من بعدهم اجيالا .

ومن جهة اخرى ادار العرب ظهورهم لأدب اليونان تعاليا منهم وتبجحاً في انهم امة خصها الله بالفصاحة ، فلا ادب سوى ادبهم ، حتى لقد قال الجاحظ : « ان فضيلة الشعر مقصورة على العرب » .

فاذا كان الحوار عنصراً اساسياً في المسرحية ، فانه بوسعنا ان نجد ملامح عن هذا الحوار في العديد من قصائدنا القديمة ، من مثل ما كان بين امرىء القيس وصويحباته ، وبين عنترة واحطابه ، وبين عمر بن أبي ربيعة ومليحاته ، او بين اي شاعر وظبائه ..

غير ان موقف النقاد العرب من حركات التجديد قد وأد تلك الملامح الاولى ، فقد كان اللغويون المتزمتون هم الذين يمسكون بزمام النقد ويشهرون سيف التحطيم على كل من يحيد عن النهج التقليدي للقصيدة .

انهم انتقدوا الشاعر عمر بن ابي ربيعـــة لأنه اجرى على لسان الفتيات حواراً شعرياً يحكي حقيقة ماجرى ، وذلك لايليق بوقار الشعر ، فآخذوا الشاعر لأنه بذلك قد تغزل بنفسه ، وهذا غير معهود قبله لدى الشعراء .

ومن هذا القبيل ايضاً لم يبح النقاد المتزمتون للشاعر الذي فجع بفقد زوجته ان يرثيها ولو تمزقت نفسه حزناً عليها، وبوسعه ان يرثي اي كائن على وجه الارض ما عداها . وذكر ابن قتيبة انـــه « ليس لمتأخر الشعراء ان يخرج عن مذهب المتقدمين » فيرحل على حمار او بغل ويصفها لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير » حتى لنكاد نرى ظاهرة التحريم تسري من الفقهاء الى الادباء . والنابغة الذبياني نفسه لم يحل تقدمه دون ان تصيبه سهام اولئك النقاد لأنه ارتكب عيباً اسمه (التضمين) ، حين ربط بين احد ابياته وبين بيت يليه ربطاً محكماً في اللفظ والمعنى ، والاصل ان يكون البيت منحوتاً بذاتـه مستقلا بنفسه منفصلا عما قبله وعما بعده . . وبذلك قطع اللغويون الطريق ايضاً على تطور اي حوار مرسل يسير نحو التدفق .

وبرغم ان المسرح لدى قدماء المصريين ولدى اليونان قـد نشأ في كنف الدين وبين طقوسه ومناسكه ، وبرغم ان العرب قد عرفوا المسرح في هذا العصر بعيداً عن هذه الصبغة الدينية فإن ثمة مظاهر مسرحية محدودة كانت ترتبط لدى المسلمين ببعض الطقوس ؛ فالحجاج كلهم انما يقومون بدور تمثيلي درامي حـــين يسعون بين الصفا والمروة تخليداً لذكرى هـاجر ، ام اسماعيل ، تلك المرأة الصابرة التي كانت تتردد ايضاً بين الصفـا والمروة باحثة عن الماء لتروي به عطشها وعطش ولدها .

ومثال ابرز نجده لدى المسلمين الشيعة في فارس وغيرها يتخذون من فاجعة الحسين في كربلاء نواة لمسرحية مأساوية يتلونها في موسم عاشوراء من كل عام ، فيبكون وينوحون ويلطمون حتى تدمى وجوههم مشاركة منهم للحسين فيما كان من عذابه قبيل مصرعه .

كذلك ذكر ان احد المتصوفين كان يخرج الى ظاهر بغداد ، فيلتف الناس حوله ، فيكلف اتباعه بأن يمثل احدهم ابا بكر الصديق وآخر عمر بن الخطاب ، وهكذا بقية الصحابة والخلفاء الراشدين فيثني عليهم ويشيد بأعمالهم او يحاكمهم ..

غير ان ذلك كله لم يكن ذا اثر في الادب بسبب سيف النقد المصلت على الشعراء .. ونظراً لأن المسرح في الغرب نشأ في كنف الدين وطقوسه ، فقد حظي باحترام بلغ في بعض الاحيان منزلة التقديس ، على حين لم يكن له لدى دخوله على العرب اي صلة بالدين ، ومن هنا ايضاً لم يحظ بأي احترام من قبل جيلنا السابق في القرن التاسع عشر ، فاعتبر فن التمثيل دخيلا على عالمنا العربي الحديث ، وظل يعاني من هذه النظرة المزرية أمداً طويلا . وأكثر من ذلك رأى فيه المتزمتون ودعاة الرجعية بدعة وضلالة . وهكذا فإن ما لقيه ابو خليل القباني رائد المسرحية الشعرية ، شبيه بما كان يلقاه الأنبياء والمصلحون من أذى بين بني قومهم الذين لا يعقلون .

لقد اقام اسكندر فرح مع ابي خليل القباني دعائم مسرح جديد في دمشق مثلت على خشبته رواية (عايدة) ثم (الشاه محمود) وكان نجاح كبير اغرى الرائدين بالمضي قدماً . ولكن الرياح لم تجر بما تشتهي السفن ، فسرعان ما هبت الرجعية حانقة واغرت فتيان الأزقة بمهاجمة المسرح واصحابه المارقين ، حتى اخذ اولئك الصبية يطوفون في شوارع دمشق وهم يرددون :

أبو خليل القباني ... يا مرقّص الصبيان
ارجع لكارك احسن لك ... ابو خليل القباني
ابو خليل من قال لك ... عالكوميضا مين دلك

ارجع لكارك احسن لك ارجع لكارك قباني

وقد اعتبر احد المتزمتين ظهور شخصية هارون الرشيد على المسرح بدعة، فراح يصيح اثناء خطبة الجمعة مستنجداً بالسلطان عبد الحميد :

« ادركنا يا امير المؤمنين ، فان الفسق والفجور قد تفشيا في الشام ، فهتكت الاعراض وماتت الفضيلة ، ووئد الشرف ، واختلطت النساء بالرجال »

وبالفعل لقد ادركه السلطان ، فاغلق المسرح ووضع مفتاحه في جيبه الشريف .

وهكذا انطوت صفحة مشرقة من المسرح السوري الرائد وهو في عمر الورود ، لكن لتنفتح صفحة اخرى اكثر اشراقاً في مصر حين هاجر القباني بفنه الطريف الى ارض الكنانة .

إن أول مسرحية شعرية عرفها الأدب العربي الحديث في فجر نهضته هي (المروءة والوفاء) وقد ألفها خليل بن ناصيف اليازجي ، ولعل أقدم مسرحية شعرية ظهرت في سورية هي رواية آخيل (آخيل) لسليم عنحوري المعربة عن الفرنسية ، وقد مثلت لأول مرة في دمشق عام ١٨٩٨ . وقد سبك العنحوري مسرحيته في الفي بيت من الشعر يتخللها بعض النثر ، وهي تعالج ظاهرة الحسد وترمي الى الاعتبار ، وقد صدرها بقوله :

رواية قد حوت احكامها عبرا الحاسدين ونصحاً واضح الجدد
ماأهنأ العيش في الدنيا وأبعده عن المفاسد لولا آفة الحسد

وأديب اسحق ، الأديب الدمشقي الموهوب الذي توفي في عنفوان شبابه عرّب مسرحية (اندروماك) عن راسين مع بعض التصرف ، وصب اغلب الحوار في قوالب الشعر ، على حين ترك بعضه منثوراً في عبارات مسجوعة .

وأبو خليل القباني الذي استقى أكثر مسرحياته من الف ليلة وليلة آثر في معظمها القالب الشعري والعبارة الجزلة والقافية الموحدة ، وكان يؤاخي في بعض الأحيان بين الشعر والنثر ، على غرار ما نجده في مسرحية (محمود ، نجل شاه العجم) . ففي أحد المشاهد يقف محمود العاشق أمام أبيه الملك قائلاً :

ولي دموع قد جرت مثل الفرات السلسل
يلوم فيها عاذلي اين الشجي من الخلي

الملك : ومن هذه العشيقة ياولدي ؟

محمود : آه ، هي التي أذابت كبدي

ذات القوام السمهري أخت الغزال
من اخجلت بالخفر ضوء الهلال
كادت بسهم الحور والطف تمحو اثري

انه غرام مبرح كان محمود يعانيه ، ولكن ما يشبه كان أقرب الى المستحيل لأنه يعشق صورة وهيهات أن يجد فتاة تتجلى فيها ملامح رؤياه . ولكن أباه الملك يعقد العزم على ايجاد المرأة التي تطابق هيئتها ما يتعشقه ولده في الصورة . ويضرب محمود في الأرض حتى يبلغ الهند باحثاً عن حبيبته ، ويكاد يفتك به ملك الهند بعد أن ظنه جاسوساً ، ثم يساعده على هدفه بأن يعلق صورة فتاته على باب الحمام حتى يراها الناس ويرشدوه اليها .

ومحمود لم يكن بين يدي القباني مجرد عاشق للوهم . لقد أضفى عليه المؤلف عناصر نفسية ورمزية جعلته لا يهيم في الأرض إلا بحثاً عن حقيقة ، وهو يستند في ايمانه بهذه الحقيقة الى شعور قلبه وحدس نفسه ، إذ لو لم تكن تلك الفتاة الجميلة موجودة لما أحبها ، بل لما سار في الآفاق باحثاً عنها ، بوحي من قلبه ،

معتقداً أن قلب المحب دليله . وفي هذا كله ما يماشي الى أبعد حد فلسفتنا الشعبية الشرقية التي تستوحي من القلب أكثر مما تستوحي من العقل والتي تقول ان للقلب منطقه الذي لايدركه العقل .

لقد كان القباني شاعراً وناثراً وملحناً ، كما كان بوجه خاص مؤلفاً وممثلاً ، شأنه في ذلك كشأن العديدين من أعلام المسرح العالمي منذ سوفوكليس حتى شكسبير فموليير ..

ويبدو أن الشعر كان أثيراً لدى رواد الأدب المسرحي في القرن الماضي سواء في سورية أو لبنان أو مصر ... فكانوا يحرصون على ادخاله في المسرحيات النثرية نفسها وترصيع مشاهدها به .

وكان لمقطوعات الشعر أيضاً حيز لا غنى عنه في بعض النتاج المسرحي النثري المتأخر نسبياً ، من مثل مسرحية (وامعتصماه) النثرية لعبد الوهاب أبي السعود ، وهو الشخصية الثانية البارزة على الصعيد المسرحي في هذا القطر .

على أن نص المسرحية لم يكن في الماضي أكثر من خيط تنسلك فيه مشاهد الرقص وألوان الغناء ، فكانت الرواية الواحدة خليطاً من شعر ونثر وانغام وفكاهة . هذا ما كان يريده الجمهور ولا مناص مما يريد .

كان شعار الرواد شعاراً مثلث الجوانب وفحواه : النثر تفهمه العامة ، والشعر للخاصة ، والانغام تطرب الجميع . وكان القباني بارعاً في عملية التأليف التي هي في حقيقة الأمر تلفيق بين عناصر متباينة ، تسعفه في ذلك موهبة لاتنضب . فاذا أعوزه الشعر استشهد به أو نظمه ، واذا احتاج الى الزجل حبكه في السياق ، وهو يدس ذلك كله ببساطة حتى في المسرحيات المعربة .

ثم تكونت فجوة مديدة بعد النكسة التي مني بها مسرح القباني في دمشق لتبدأ مرحلة اخرى تنم على انعطاف في المسرحية الشعرية .

كان التطلع الى عهود الاندلس الزاهرة واللوذ بالماضي المجيد في ذاته مظهراً رومانتيكياً إبان محنة العرب بالاحتلال يحقق للجيل العربي المقهور مظهراً من مظاهر المباهاة أمام زبانية الاستعمار ، وأن هذا الاستعمار المزهو بقوته كان يوماً راكعاً تحت أقدام العرب .

ولعل مسرحية (فتح الاندلس) أول ما يطالعنا خلال العقد الثالث من هذا القرن ، وهي من تأليف الشيخ فؤاد الخطيب الملقب بشاعر الثورة العربية الكبرى .

غير أن هذه المسرحية لاتعدو أن تكون مجموعة من الشعر الحماسي الجزل ، ساقه المؤلف في اطار من التاريخ ، وبرغم الاطراء الذي دبجه الشاعر خليل مطران خلال التقديم للمسرحية ، فإنها أقرب ما تكون الى حوارية تاريخية لافتقادها قوة العنصر الدرامي .

وإذا كان طبيعياً أن يغدو الحوار نثرياً في الكلام المسرحي مشاكلة للواقع ، فإن الغريب أن يحدث العكس فتنقلب الخطبة التاريخية النثرية قصيدة شعرية ، فطارق بن زياد يغدو في مسرحية فؤاد الخطيب شاعراً يلقي خطبة منظومة في جنوده تبلغ العشرين بيتاً ساعة الفتح :

ألا أين ياقومي المفر ، وما العذر　　وقد كشرت عن نابها الفتكة البكر
أمامكم الأعداء ، والبحر خلفكم　　وليس لكم إلا العزيمة والصبر

وفي مثل هذا الشعر نفس ملحمي برع الشاعر في صوغه ، كما اختار له البحور الطويلة التي تتسع للمعاني الجليلة وتنبسط أمام العواطف المتدافعة ،

فالبحر الطويل هنا بمثابة الوزن الاسكندري الذي كان يؤثره أعلام المسرح الكلاسيكي في أوربا .

وتبقى هذه الحوارية سائغة للقراءة والمتعة الأدبية أكثر من كونها مسرحية صالحة للتمثيل على خشبة المسرح .

وثمة مسرحية اخرى اسمها (أبو عبد الله الصغير) للشاعر انور العطار الذي استقاها من التعليقات التاريخية المسهبة التي ذيل بها الأمير شكيب ارسلان روايته (آخر بني سراج) . هذه الرواية التي كان قد عربها شكيب عن الفرنسية لشاتوبريان . وهي ايضاً لا تخرج في ملامحها من الناحية الفنية عن مسرحية فؤاد الخطيب ، فصاحبها لم يكن فيها اكثر من شاعر . وقد اختتمها العطار بالبيت القديم المشهور على لسان الشيخ الزاهد الذي ابصر بأبي عبد الله يبكي وينتحب فقال له :

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال .

هذه الجواء ، جواء الأندلس الرائعة وما كان يرتسم حولها من هالات البطولات والأمجاد كانت وما تزال تستهوي الجيل العربي .

وهكذا الف عدنان مردم بك مسرحيته (عبد الرحمن الداخل) . انه استوحى التاريخ ولم ينظمه ، بل انه فوق ذلك استطاع ان يعقد منذ البداية علاقة حب عميق بين بطله الامير الداخل وبين ابنة عمه هند ، كما افلح في أن يربط بين عاطفتي الحب والطموح ويجعلها تسيران متوازيتين متعانقتين خلال المسرحية ، وذلك على غرار ماجنح اليه اعلام المسرح الكلاسيكي في اوربا ، وبخاصة كورني وراسين .

وما من شك في أن التاريخ قدم للمؤلف في شخصية الداخل نموذجاً فذاً من الناحية القومية والناحية الانسانية فتوافرت بذلك للمسرحية مقومات البطولات الروائية في العمل المسرحي الدرامي .

ثم طلع عمر ابوريشة على جيل مابين الحربين ، وهو دون العشرين ، بمسرحية شعرية باسم (ذي قار) وقبس احداثها من تاريخ العرب في الجاهلية . وهي زاوية مضيئة من غابر العرب احسن الشاعر التقاطها فإذا هي ذات روح قومية فضلاً عما ارتسم حولها من هالة تاريخية . وتعكس مسرحية ذي قار اول التحام بين العرب والفرس ، كما يتجلى فيها النصر المبين للعروبة المتفتحة على الصلف الفارسي . ولا شك في أن ابا ريشة كان يؤلف مسرحيته واضعاً نصب عينيه حال قومه في ظل الاحتلال البغيض ، حريصاً على ان تكون عينه على الغابر وعينه الأخرى على الحاضر . يؤيد ذلك تلك النزعة الرومانتيكية التي تطالعنا في تتويج المسرحية بهذين البيتين اللذين صدر بهما أبوريشة مسرحيته وتحتها صورته بالزي العربي :

يافؤادي الا تزال كئيباً ... شاكياً ، باكياً ، على غير جدوى
لاتكن ظالماً ، فانك ان مت ... تركت الآلام من غير مأوى

لقد احسن المؤلف استغلال العقدة والوصول بالأحداث الى مرحلة التأزم حين صور ملامح شخصية بطلته (الحرقاء) ابنة النعمان ، وكيف رفضت يد خاطبها كسرى آبية ان تكون تحت علج اعجمي . ويتصدى الأب النعمان لغطرسة كسرى فيسقط في القتال صريع المبدأ . وهنا يبرز فارس العرب ، المنذر بن الريان الذي يحب الحرقاء ويدفع عنها اذى الفرس وهو مقنع في المعركة الفاصلة على رأس قبائل العرب في ذي قار .

لقد مثلت هذه المسرحية مراراً بعد ذلك وصفق لها الشباب في حلب وحمص وحماه وبيروت .

وعلى هذا الغرار أيضاً نجد مسرحية (اليرموك) التي ألفها خلدون الكناني نثراً ونظمها سلامة عبيد شعراً ، غير انها تتسم بالركود برغم جزالة اسلوبها. وفيها يقول خالد بن الوليد وهو يزحف الى دمشق :

والآن هيا فقد حنت جوانحنا	الى دمشق ونادتنا المواعيد
الى دمشق التي في الحرب يطربها	وقع السلاح وفي السلم الأغاريد
الى دمشق التي في ظل دوحتها	شاب الزمان وماتغنى الأماليد

ومن هنا كانت (اليرموك) اصلح للقراءة منها للتمثيل .

عديدون هم الذين دقوا هذا الباب — أعني باب المسرحية الشعرية — دون أن يلجوه ، وفي رأسهم أبو ريشة . غير أن عدنان مردم بك هو الذي مضى في هذا الشوط بعيداً فأتحفنا بالاضافة الى مسرحية الداخل بثلاث مسرحيات شعرية اخرى هي (غادة افاميا) و (العباسة) و (الملكة زنوبيا) .

وكما استوحى شوقي وطنه المحلي في مسرحيته (مصرع كليو باترة) كذلك استوحى عدنان مدينة افامية العريقة في سورية . فمن خلال مشاهدها نلمح إسقاط الحاضر العربي المنكوب بالصهيونية على الاحداث الغابرة : جحافل الرومان المتغطرسة تجوب ساحة المدينة مزهوة بالنصر ، على حين ترمقهم من خلف النوافذ عيون الناس الكسيرة بوجوم وأسى . غير أن الظفر الذي حققه الاعداء لم يحقق غايته ، فالمقاومة السلبية تفت في عضد العدو بلا هوادة ، وهنا يصر القائد على تقديم قربان من أهل المدينة بمناسبة العيد ، فيتنافس نايف وتميم على ان يكون

كل واحد منها كبش الفداء . غير ان القائد الطاغية لا يرضيه سوى الفتاة غادة قربانا ، ويبادر نايف الى الوالد الامير بحماسة :

مولاي ما زال فينا بقيــة لنضــال

ولم يكن أمام الوالد البائس من ان يتخذ واحداً من قرارين ، أحلاهما مر ، فقال بلوعة :

اذا فكرت في فقد ابنتي او فقد اوطاني
سخوت مع المصيبة بابنتي وكتمت اشجاني

غير أن إحراق غادة يكون بمثابة الشرارة التي تشعل البركان ، فيندفع الشبان المغاوير الى المنصة فيغمدون أسيافهم في صدر الطاغية ، ويدب الانقسام بين صفوف العدو ، ويصبحون في هرج ومرج بين مؤيد ومستنكر ... على حين كان نايف ينشد مع صحبه :

صبراً ، وما من شدة الا ويتلوها الفرج

وعلى هــذا القرار بنى عدنان مردم مسرحيته الاخرى (العباسة) ومسرحيته الاخيرة (الملكة زنوبيا) التي صدرت في مستهل عام ١٩٦٩ .

واذا جاز لنا الآن أن نصنف كتاب المسرحية الشعرية فإننا نستطيع ان نجعلهم في ثلاث مدارس ليست في حقيقتهــا سوى ثلاث مراحل ، تضم مدرسة القباني واديب اسحق التي تعتمد على حشر مجموعة من الفنون في داخل المسرحية . ثم مدرسة أبي السعود وأبي ريشة ومردم ، وقوامها نقاء الديباجة وجزالة اللفظ وجلجلة القافية . ثم المدرسة الاخيرة وتمثل انعطافاً في هذا الفن المسرحي وقوامه تحطيم قيد القافية الموحدة والاعتماد على شعر التفعيلة بدلاً من

الاشطر المتناظرة . وتضم هذه المدرسة سليان العيسى وممدوح عدوان وعلي كنعان .

انها تجربة جديدة جديرة بالتأمل ، فسليان العيسى افتتان كبير ببعض الشخصيات البارزة في تاريخ العرب مثل أبي ذر الغفاري ، الاشتراكي الثائر ، وأبي محجن الثقفي ، الفارس الضائع ، وأخيراً جبلة بن الايهم ، بقية العهد البائد .

فالشاعر لم ير في حكاية جبلة مجرد حادثة تاريخية عبرت مسرح الماضي البعيد ، بل اتخذ منها مرآة تراءى له في وجهها واقع المجتمع العربي في ايامنا هذه ، هذا المجتمع الذي ينعطف الى نظام جديد تتبدل فيه العلاقات الاجتماعية ، فاذا شخصيات الحوارية رموز موحية لعناصر مجتمعنا الراهن .

كان جبلة رمزاً للطبقة الارستقراطية والبورجوازية التي ارتبطت مصالحها بالاجنبي فخدمته وخدمها . انه يقاوم النظام العربي الجديد مدفوعاً بمصالحه الطبقية : التاج والعرش ، وينحاز الى صفوف الروم . كانت نفسه تفور بالصلف وبالتعالي على الكادحين البسطاء ولم يكن هناك بد من ان يصطدم مع تعاليم الدين الجديد ، دين الحرية والاخاء والمساواة . انه يقول بعنفوان الجاهلية :

لست من ينكر ، أو يكتم شيئاً

أنا أدبت الفتى ... أدركت حقي بيديا

ثم يقول بغطرسة الملوك ، مستنكراً اصرار عمر بن الخطاب على القصاص :

كيف ذاك ؟ وهو سوقه ، وانا صاحب تاج ؟

وفي مقابل الشخصية المحورية – شخصية جبلة – كانت ايضاً الشخصية المعارضة شخصية عمر ، فانقدحت من صدامها شرارة الصراع الدرامي . فابن الخطاب يبدو لنا رمزاً للمثل الجديدة في المجتمع العربي المنشود ، قيم الحق والخير والعدل والمساواة التي كانت في خاطر الشعب المضطهد أحلاماً يتطلع اليها في ليالي عذابه وكفاحه ، ثم تجسدت في النظام الجديد الذي يتمثل في شخصية عمر .

ولسنا في صدد تقويم هذه المسرحية . فالشاعر نفسه اقتحم هذا الميدان وفي كنانته سهام قصيرة ، وهو نفسه لم يدع لعمله اكثر من انه محاولة . انها على كل حال حوارية تمتع القارىء بمغزاها وحلاوة شعرها ، أما أمر صلاحيتها للتمثيل على خشبة المسرح ، فأمر يتصل بمقتضيات الفن التمثيلي بحيث يتم الحكم لها أو عليها .

ومسرحية (المخاض) لممدوح عدوان تعد التجربة البارزة الثانية في مضمار الشعر الجديد ، انها عمل فني يتسم بالجدة في شكله التعبيري الطريف وفي مضمونه الاجتماعي الهادف .

لقد كادت المسرحية تخرج من فلك التاريخ برغم ان احداثها تشكل جانباً من تاريخنا المعاصر . انها تصوير شجي وشائق لحياة البؤس والظلم في ظل الاقطاع . لقد رحـــل الأجنبي المستعمر عن ارض هذا القطر العربي ولكن زبانيته ظلوا مقيمين ، انهم الورثة من بعده : المالك والآغا متخمون ، والفلاحون المساكين عبيد اجراء ، يأكلون الكرباج ويدفعون الخراج ويعيشون عيش النعاج . إنهم يئنون :

تلاشت نفوسنا ... فقد غت بلا حنان

ولم تعد تحس بالحرمان

أو باليأس والأمل

نحن نعيش دونما أسماء

شاهين ، نموذج الفلاح المتمرد ... طاقة فردية هوجاء تفجرت في قلب المأساة دون أن تتبين ملامح الطريق ، راح يصب نقمته على اولئك الدرك المساكين ، وما هم الا ادوات وأسواط في ايدي الجلادين وزبانية الاقطاع ، لكنه مضى برغمه في طريق الشوك يقتل ويقتل حتى غدا طريد القانون وانتهى به المطاف على منصة الاعدام . لقد كان ثورة قبل اوانها ، ثورة لم تتم ، ولكنها تركت بذوراً ، انه لم يمت في ضمير الفلاحين بل عاش اسطورة ، انه البطل او الشيطان ، انه التحدي

أما مسرحية (السيل) فلعلها من أحدث المسرحيات الشعرية في هذا اللون عبر هذا الفن الطريف .

هذه المسرحية الشعرية الفها علي كنعان في اعقاب نكسة حزيران ، ونشرها اول الأمر بعنوان (سد مأرب) في اعداد الطليعة بدمشق ، ثم لم تلبث ان اعتلت خشبات المسرح .

والحق ان لهذه المسرحية نكهة خاصة ؛ فأحداثها لا تمتح من التاريخ كما تعودنا من امثالها ، ولكنها تجري في قرية متواضعة في ريفنا البائس .

انها مسرحية تعتمد على الرمز واسقاط الواقع القومي الشامل على المجال المحلي الضيق . يمهد المؤلف لمسرحيته بقوله :

منذ الطفولة والسيل يشغل بالي أكثر ايام الشتاء العاصفة، قريتنا تتعرض السيول في كل عام ممطر، وبيتنا مهدد بتسرب المياه اليه .. ثم كبرنا و كبرت هموم السيل معنا .. صار السيل يتجلى بغزو خارجي يهدد مصير امة بأسرها، ..

فكرة المسرحية تنطلق من القرية وتتركز حول ضرورة بناء سد في وجه السيول، مع اسقاط البعد القومي على تلك الارض الصغيرة.

الناطور ابو عرب هو الذي يشعر بحدسه بهول المأساة وشبح السيل، فيقض ذلك مضجعه، وينغص عليه عيشه فلا يفتأ يردد: السيل... السيل ولكن ما من احد يتفهم عنه مايعني حتى امرأته.. ويبقى مع اخوته الفلاحين وهم يرددون..

نهدر زيت عمرنا في كبد التراب ..

ويكون الصراع المرير بين البسطاء وبين المختار الثعلب الذي يمثل القوة الغيبية والاقطاع والاستغلال عندما يقول:

السيل كان قدراً محتوم
كالموت لا مرد له
فهل نعاند الأقدار
هل ننكر المشيئة الخفية
تلك التي تحدد الاعمار
وتنزل الأمطار
وترسل الرياح والطاعون والسيول
لكل مستحق !!!

وتنفذ إرادة الناطور أبو عرب وهو ليس في حقيقته إلا رمزاً للشعب، فينادي باصرار:

لابد ان نقيم هذا الحد

ولو على جثثنا الممزقة

وكان لابد أيضاً ان توقظ الشرارة البركان :

وكان معه ، معوله ، وزاده ، وكفنه .

قد تفتقر هذه المسرحية الى الحبكة الدرامية ، وقد لا يتجلى فيها عنصر الصراع على النحو المنشود ، وهذا ما يجعلها تفتقر الى التشويق ، وبذلك قد لا ترضي ميول ذوي المسرح الكلاسيكي . ولكنها برغم ذلك محاولة جديدة هادفة في المسرح الشعري تصطنع الرمز في معالجة الواقع وتعطف بالمسرح في هذا القطر نحو مسار جديد .

* * *

وبعد ، فقد آن لنا ان نقرر أن التأليف المسرحي عمل صعب يفوق في صعوبته بقية انواع التأليف الادبي فالمسرحية فن مركب يتطلب من المؤلف قدرة فائقة ومواهب نادرة وخصائص ذهنية عالية قل ان تتعانق مجتمعة في شخص واحد . اما تأليف المسرحيات الشعرية فأمره أكثر صعوبة وابعد منالاً . ومن هنا ندرك قيمة ما بين ايدينا من هذا التراث المسرحي على تواضعه ونكبر جرأة اصحابه ومحاولاتهم مهما يكن حظها من النجاح او الاخفاق .

وتبعاً لصعوبة هذا الفن نلاحظ ان اكثر الذين اقتحموا مجال المسرحية الشعرية قد ارتدوا عنه ، ومنهم عمر ابو ريشة .وقل من اكمل الشوط منهم سوى القباني من قبل ، وعدنان مردم من بعد .

كما ينبغي الاقرار بهذه الحقيقة وهي ان اكثر من عالجوا المسرحية الشعرية كانوا شعراء موهوبين اكثر منهم مؤلفين مسرحيين .

ومن الملاحظ على مسرحياتنا الشعرية أنها في معظمها تغترف من معين التاريخ . ومرد ذلك في رأينا الى ان المؤلف المسرحي يجد في احداث التاريخ ، وفيما يرتسم حولها من هالات ، خير ما يعينه على التأليف : الهيكل جاهز وما على المؤلف إلا ان يكسوه اللحم ويجري فيه الدم .

والسبب الاخر لغلبة المسرحيات التاريخيـــة الشعرية لدينا هو تأثر المرحيين الرواد بالمسرح الكلاسيكي الذي يشترط لتأليف التراجيديا ان يكون موضوعها مستمدا من التاريخ .

يضاف الى ذينك السببين سبب ثالث هو ان المسرحية التاريخية بفضل صورتها الدرامية اقدر على بعث الامجاد القومية ، وهذا ما جنح اليه شوقي في مصرع كليو باترة وعنترة وقمبيز واميرة الاندلس ، او ما جنح اليه عبد الوهاب أبو السعود في (وامعتصماه) ، وفؤاد الخطيب في (فتح الاندلس) ، وعدنان مردم في (الملكة زنوبيا ، وعبد الرحمن الداخل ، والعاصفة ..) .

اما السؤال الملح الذي يجدر ان نخرج من هذا البحث بجواب عنه فهو ما هو مدى صلاحية الشعر كأداة للتعبير المسرحي ؟ وبكلمة اخرى : ما هو مستقبل المسرحية الشعرية في تراثنا الفني ؟

الحق ان المسرحيـــة الشعرية عرفت ازهى عهودها لدى اليونان ثم لدى الغربيين في الحقبة الكلاسيكية ، غير انها انحسرت عن مدها امام منافسة النثر في هذا العصر . صحيح ان فكتور هوجو والفريد دوفيني وسواهم من الرومانتيكيين مارسوا ايضا تأليف المسرحية الشعرية ، كما مارسها من بعدهم الشاعر الايرلندي ييتس وما كسويل اندرسون وروما ن رولان وت . س إليوت ، الا ان المسرحية الشعرية ما زالت تعيش خلال عصرنا في الظل ، وربما كانت

ازمتها في العالم اليوم من ازمة الشعر نفسه . غير ان الامر قد يختلف بالنسبة الى العرب بعض الشيء ، فالمسرحية الشعرية بطابعها الغنائي السائد قد لا يكون بوسعها البقاء طويلا ، انها أدت دورها التاريخي خلال مرحلة مضت وانقضت . إن القافية الموحدة لا تصلح لتدفق الحوار المسرحي ، لانها بمثابة القفل الذي ينهي الفكرة ويختم المعنى ثم يغلق عليها الباب .

إن آيات القرآن نفسها في سوره المكية والمدنية انما تتراوح بين قصر وطول ، وايجاز واطناب تبعاً لمقتضى الحال وعلى حسب طبيعة الموقف والموضوع ومثل هـــذا الامر لا غنى عنه في المسرح الشعري ، والبيت التقليدي باستقلاله وبرتوبه قد يصلح لنوع من المسرحيات الشعرية وهو المسرحية الغنائية . ان الجزالة وحدها لا تهمنا ، فليس المسرح منبرا للخطاب ، والشاعرية قد تكون ايضا في النثر . ومن جهة أخرى فإن اختيار موضوع مسرحي يتسم بالمعاصرة والواقعية يقتضي من المؤلف ان يتمثل ذاكرته ويطوع محفوظه . فالعبارات الجاهزة والتضمين الشعري . . . لا مجال لها في هذا الفن الطريف المستحدث وبذلك يمكن ان تنطرح في أدبنا العربي المعاصر صورة جديدة في اطار تعبيري جديد .

ان التجربة الرائدة التي يطلع بها علينا المجددون في هـــذا القطر وسائر أقطـــار العرب تتمثل في اعتماد الشعر الحر كأداة تعبير ناجعة وفعالة في فن المسرحية الشعرية . وان هذه التجربة جديرة ان تمتد وتزداد غنى ومضاء . ولعلها أجدى ماتكون في هذا الفن دون سواه ، فالحوار المسرحي يتراوح بين قصر وطول ، وجزر ومد . والعبارة الشعرية المسوقة في هـذا العمل الفني ، انما هي

دفقة شعورية تمليها طبيعة الموقف ، فقد تتوالى كلماتها متلاحقة متدافعة كالسيل ، وقد لاتعدو في اقتضابها كلمة مبرمة واحدة .

وتبقى عبارة الشعر الحر عربية أصيلة غيرمنبتة عن دوحة العروض العربي لانها مرتكزة في قوامها على مبدأ التفعيلة نفسه من حيث الاساس .

والشعر الحر الذي نحتاج اليه ونطمح الى ايجاده في فننا المسرحي بمثابة لغـة ثالثة ، لغة ليست بلغة النثر ، كما انها ليست بلغة الشعر العمودي التقريري .

مثل هذا التطوير في الأداء الفني وإبداع اللغة الثالثةهو مايكفل لمسرحيتنا الشعرية الازدهار . ولا خوف بعد ذلك على المسرحية الشعرية من مستقبلها المظلم الذي تنحدر اليه في العـالم . ونحن لانستطيع ان نتصور بقاء المسرحية النثرية وفناء المسرحية الشعرية الا اذا تصورنا عما بطرف واحد . فثمة حالات ومواقف تغدو معها اللغة العادية عاجزة عن التعبير أمام العارض الخافق بالمشـاعر وفي سراديب اللاشعور وعلى أجنحة الخيال الرفافة حيث لاتنفع غير لغة الشعر . وكما قال بول فاليري : النثر كالمشي ، ولكن الشعر كالرقص . وهكذا لكل مقام مقال .

ان المسرحية العربية ستظل بخير في تراثنا العربي ، وما ذلك الا لأن الشعر اعرق ملامح الأمة العربية واوثقها اتصالاً بشخصيتها . وكما قال رسولنا العربي : لاتدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين . كما ستبقى أخيراً هـذه العبارة القديمة خالدة وهي (الشعر ديوان العرب) .

القصة

الضحية

محسن غانم

لم تبدأ جريمتي اليوم أو البارحة ، وإنما ابتدأت يوم كنت أسير في الشارع الرئيسي المزدحم بابناء هذه المدينة ، يوم قررت ان اجوب السير الى الخلف ، بعد ماقضيت أكثر من ربع قرن أسير كما يسير جميع أبناء جلدتي . يومئذ كان الملل القاتل يأخذ بمجامع نفسي ، والثورة على المألوف تسد علي منافذ التفكير ، فقلت :

— ماذا لو أسير الى الوراء ؟

— سيصفني الناس بالجنون .

— وربما يقبض علي شرطي ، ويسدد الى فكي لكمة قوية ليوقظني من سكر ظنه فيّ .

— وقد يمر واحد من أصدقائي فيلقي فوق جسدي نظرة اشفاق ويمضي .

وأكدت في داخلي :

— ولكنني سأجرب .

— فهل تستطيع ساقاي السير الى الخلف كما تسيران الى قدام ؟

— أم سأقع أرضاً كلما سرت بضع خطوات؟

— سأجرب وليكن مايكون .

يومئذ لم يخطر ببالي ان الناس لن يلتفتوا اليّ ، وان يزدروا فعلتي او يعيروها شيئاً من اهتمامهم ، بل لم أصدق عينيّ وأنا أسير في زحام القوم الى الخلف كما يسيرون هم الى أمام ، فلا أرى في عين واحد من المارة نظرة شزراء أو رمقة استنكار .

وعندما توقفت بي قدماي عن السير الى أمام ما كنت أقصد بذلك إلا أن امتحنهما في المشي الى الخلف مرة واحدة على سبيل التجربة واكتشاف المجهول ، ولم يمر بخاطري قط أن أتخذ من السير الى الوراء عادة متبعة او طريقة مستمرة تميزني عن جميع الناس ، وتجعلني بينهم فرداً لامثيل له .

ولكن الذي حدث ان ساقي لم تكادا تخطوان الخطوة الأولى في سبيلهما الجديد حتى شعرت بأن الأمر طبيعي جداً ولا يكاد يختلف عن الوضع السابق في شيء . ولاحظت مرونة قدمي في السير الى الخلف ورشاقتهما وخفة حركتهما ،

فاستمررت في طريقي سائراً على رصيف الشارع ضارباً في زحام المارة المتدافعين بالمناكب والأكتاف .

بعد ذلك رحت أسير الى الخلف متردداً في بادىء الأمر ، ولكن أحداً من الناس حولي لم يلتفت نحوي أو يستغرب فعلتي ، وكنت أطيل النظر الى وجوه العابرين وأحدق في عيون الرجال والنساء والأطفال ، فلا أرى فيها استكراها او استقباحا لما أنا فيه ، ولا ألتقي غير النظرات الفارغة من المعنى ، تضرب جبيني وتتراكم فوق وجهي وقفاي .

وكان جيراني وأصدقائي يرون بي فيبادلونني التحيات الحارة المعتادة ، ولكن أحداً من هؤلاء لم يشر الى انني أسير الى الخلف ، حتى أهلي ، اخوتي ، زوجتي ، أولادي ، لم يبد أي منهم أنه لاحظ طريقتي الجديدة في المشي ، وظلوا يعاملونني وكأنهم لا يعرفون عن نحوي شيئاً .

وبينما كنت في طريقي المعتاد ذات صباح ، أسير بطريقتي الجديدة ، تعثرت قدماي بشيء ، وكدت أقع على الأرض ، غير انني تماسكت بسرعة ونظرت الى ذلك الذي اصطدمت به ، فاذا محفظة نقود منتفخة بين قدمي . نظرت حولي فلم أجد أحداً قريباً من مكاني ، فامتدت أصابعي الى المحفظة والتقطتها ، ثم خبأتها في مكان خفي داخل سترتي .

ولما وجدت نفسي وحيداً في غرفتي فتحت المحفظة ، فاذا هي محشوة اوراقا نقدية من فئات كبيرة فلم استطع تصديق عيني ، ولم يقر في صدري انني اصبحت أملك مثل ذلك المبلغ الضخم الا بعد أن حملت النقود الى مصرف قريب ، حيث افتتحوا لي حسابا واعطوني دفتر شيكات . عندئذ هدأ وجيب قلبي ، ومرت في

الشارع الرئيسي رافع الرأس مختالا ، ويداي في جيبي بنطالي أمشي الى الخلف على عادتي الجديدة .

في اليوم التالي التقطت محفظة ثانية ممتلئة اوراقاً نقدية كالمحفظة الاولى ، فاسرعت بها الى المصرف واضفت ما فيها الى رصيدي لديه . وبعد شهر واحد كنت صاحب أكبر ثروة في المدينة، فقد تتالت الحادثة . وصرت كلما خرجت لأتمشى متنزهـــا التقطت محفظة عامرة بالنقود ، فاضيف ما فيها الى ماجمعته من قبل .

بنيت لنفسي مسكناً فخماً جميلاً صممه افضل المهندسين ، وجعلت له حديقة واسعة غناء ، مملوءة بكل اصناف الزهور والورود والشجيرات العطرة والنادرة ، والطيور الملونة جلبتها من الصين والهند وافريقية وامريكة ، وقام على خدمتي نفر من الفتيان والفتيات ، واشتريت سيارات بديعة الصنع سريعة ، وأصبح الناس جميعهم يعرفونني ويشيرون الي ، ويخافونني فلا يخاطبونني الابأرق العبارات ، ولا يظهرون نحوي غير شديد الاحترام .

مضت أشهر على ما انا فيه ، عشت خلالها في قمة السعادة وحققت كل ما اردت . سافرت الى كل البلاد ، وخطب ودي رجال ونساء من أغنى وارقى الطبقات ، ومن مختلف الاجناس والألوان ، حتى بدأت أشك في أنني كنت من قبل رجـــلا عادياً كادحاً ؛ فلقد تقلصت ذكرياتي عن الفترة الأولى من عمري واضمحل شأنهـــا في ساحة شعوري ، وما عدت أعرف من الأزمنة الثلاثة غير الزمن الحاضر .

واستمر ذلك الى أن جاء يوم تقت فيه إلى ان اتنزه قليلا في الشارع الرئيسي في مدينتي سيرا على الأقدام ، مستغنياً عن ركوب السيارة ، خاصة وأن الاطباء

قد كرروا نصحهم لي بالاكثار من رياضة المشي بعد أن أرهقت السمنة قلبي ، وتهدلت عضلات جسدي لطول الاخلاد الى السكينة والراحة .

صرت في الشارع وكنت أمشي الى الوراء كعادتي ، فقد نسيت سوى ذلك من طرق السير وماعدت قادراً على أن أحرك قدمي الى الأمام . واصبح الأمر عادياً جداً بالنسبة لي ، فلا أنا أعاني صعوبة أو الفى عنتاً ، ولا الناس يرون في طريقتي ما يلفت الانظار او يستحق أكثر من نظرات ميتة من عيونهم المطفأة .

وفيما أنا في طريقي والمارة من حولي يتدافعون في كل اتجاه ، أحسست يداً تربت على كتفي ، فالتفت لأرى نفسي وجهاً لوجه مع صديق قديم لي ، عشت واياه أجمل مراحل الطفولة ، ثم أقسى ظروف الحياة التالية التي قضيناها جاهدين في طلب أسباب العيش .

نظر صديقي في عيني نظرة استغراب وقال :

– ما بالك ؟ ما الذي حل بك ؟

– كل خير .

– خير ؟

– نعم .

– لماذا تسير بهذه الطريقة ؟

– اية طريقة تعني ؟

– انت تمشي الى الخلف .

– أمتأكد من صحة نظرك ؟

– بالله عليك الا ترى نفسك ؟

– انك لواهم .

ـ واهم ؟

ـ نعم ، انت الرجل الوحيد الذي يراني اسير الى الوراء ، لماذا لم يشاهد كل هؤلاء الناس ماتشاهد ، وفيهم كثير من الأصـــدقاء ؟ انظر انهم يحيونني مبتسمين لي .

ـ اذن فانت قد اصبحت غنياً أو صاحب سلطان .

ـ لايهم ما انا فيه ، وانما المهم أن تراجع نفسك ايها العزيز .

بهت صديقي واخذ ينظر الى المارة يريد ان يستشهد بهم ليؤكد مايراه فاذا الناس ينصرفون عنه ولا يولونه أي اهتمام ، فالتفت الي وقال :

ـ لن أيأس ، لن أتراجع ، سأحاول ايقاظهم ، حتى لو اضطررت الى أن اهز أبدانهم رجلاً رجلا .

ـ لاتتعب نفسك ، وابق صديقاً لي .

ـ أنا صديقك ، ولكن شريطة ان تعود سيرتك الأولى .

ـ دعك من ذلك وتعال معي ، انا ادعوك لتناول طعام الغذاء .

ـ هيهات أن اوافق حتى تعترف بالحقيقة .

ـ لاتتحدث عن الحقائق ارجوك ، فليس ثمة حقيقة .

ـ دعني يربك دعني .

ـ الا تقبل دعوتي ؟

ـ لا . لا . ليس قبل ان ترجع عما انت فيه ، ألا ترى صعوبة الامر ؟ كيف اسير الى جانبك وانت تمشي الى الوراء ؟

تركني صديقي القديم وذهب مغضباً حانقاً، فابتدأ قلقي وخوفي،وصرت اسائل نفسي بالحاح :

ـ ماذا لو راى الناس مايراه ؟

ـ لو استطعت الرجوع عن هذه الطريقة التي اتبعتها في السير ، وصرت امشي الى الامام كسائر الناس ، هل يستمر ظهور اكياس النقود في طريقي ؟

ـ واذلم اعد التقط شيئاً من النقود من هنا وهناك ، ألن ينقص مالي تدريجياً فارجع مع الايام فقيراً كما كنت ؟

ـ ثم اذا افتقرت بعد غناي ، ماذا يفيدني السير الى الامام ؟

ورجعت ذات مساء الى منزلي شارد الذهن تعتمل في خاطري الافكار وتتصارع .

ـ لماذا لا أعطي صديقي مبلغاً كبيراً من المال فيسكت عني ؟

لكنه اذا علم مصدر ثروتي الا يطالبني باقتسام مايردني بيننا ؟

ـ انه الرجل الوحيد الذي كشفني من بين كل الناس في هذه المدينة .

ـ الوحيد الذي ترى عيناه الحقيقة .

ـ فلتفقأ عيناه .

ـ قد يتكلم لسانه .

ـ فليقطع لسانه ايضاً .

ـ لن يعدم وسيلة لافهام الآخرين .

هدأت نفسي لهذا القرار ، ورقص له قلبي ، ومضى عقلي يخطط للجريمة :

ـ يجب أن تكون جريمة مثالية . جريمة كاملة ، لاتترك أثراً ولاتخلف وراءها دليلا .

وعندما هبت اول دفعة من رياح الخريف محملة بالغبار والرمال والمطر ، واهتزت اشجار الشارع بعنف لتدفع الى الارض باكورة أوراقها المصفرة ،

كنت قد انتهيت من مرحلتي التخطيط والاعداد لارتكاب الجريمة ، وشرعت في تنفيذها .

انتظرت حتى حل منتصف احدى الليالي المظلمة ، واتجهت الى منزل صاحبي متستراً بالعتمة المدلهمة ، وفي جيبي خنجر طويل مسموم. كنت قد رسمت مخطط الجريمة بدقة وحرص شديدين ، فلم اترك ثغرة الا سددتها ، ولم اتصور احتمالا الا وجدت سبيلا لمواجهته .

وصلت الى بيت صديقي ، فإذا هو غارق في دجى الليل مستسلم لهدأة الساعة الاولى من يوم جديد . فتسلقت سور الحديقة بخفة ، وبعد لحظات كنت الج غرفته شاهراً في يمنى خنجري المسموم بينما يدي الاخرى تبحث عن مفتاح النور . فانا لن اقتله في الظلام إذ ربما اخطىء الهدف وتخونني مهارتي ، بالاضافة الى أنني لا اريد ان اغتاله وهو نائم ، وانما سأقتله بعد ايقاظه ، سأغرس خنجري في صدره ثم اقتلع عينيه اللتين ستجمدان وهما تحدقان في وجهي . سأستخرج العينين اللتين كشفتا حقيقتي من محجريهما .

ضغطت على زر في الجدار ، فغمر المكان ضوء ابيض كنور الشمس ونظرت الى مافي الغرفة فكدت اصعق واسقط على الارض مغشياً فاستندت بظهري الى الحائط ، كان صديقي يرقد فوق بلاط الغرفة على ظهره غارقاً في بركة من دمائه ، وقد فارق الحياة وعيناه مفتوحتان جاحظتان تلمعان ككرتي زجاج وتحدجانني بنظرة قاسية مخيفة كالرعد :

ـ قف مكانك ، لاتتحرك ، ارفع يديك .

ـ ليبق ظهرك ملتصقاً جيداً بالجدار .

امتثلت للامر ، فقد كنت في حالة نفسية سيئة يستحيل عليّ فيها ان

استطيع التفكير او التصرف بشكل سليم . و.. كدت أفعل ما امرت به حتى تحركت الستائر التي تغطي النوافذ ليخرج من ورائها رجل ثم ثان وثالث ورابع ، وتكاثر عدد الرجال حتى امتلأت الغرفة بهم ، فإذا هم يؤلفون كل اصدقائي في هذه المدينة .

كان كل منهم يشهر مسدسه في يـــده ويسدده الى صدره ، ويقولون بصوت واحد :

ـ تقدم واغرس خنجرك في قلب صديقك .

ـ هيا تقدم .

وبصعوبة بالغة حشرجت :

ـ لكنه ميت .

ـ صرعناه برصاص مسدساتنا قبل دخولك بقليل .

ـ لقد انتهى .

ـ تقدم واغرس خنجرك المسموم حيثما كنت تريد ان تغرسه .

ـ لا استطيع ، لا استطيع .

ـ لم ؟

ـ انه جثة هامدة .

ـ اتريد ان تشي بنا ؟

ـ لن افعل ، اقسم لكم .

ـ دعك من القسم وتقدم ، أم تحب ان تعانق جثتك جثة صاحبك ؟

زحفت قدماي فوق ارض الغرفة حتى وقفت بي أمـــام القتيل ، ثم ارتفعت ذراعي بالخنجر وهوت به ، فغاص حتى نصله في قلب الجثة .

فجر بزغ في نهاية المطاف

غسان جزائري

- ربما يبزغ فجر جديد في نهاية المطاف .
- من يدري ؟

- (بيأس) ربما كان هذا من اضغاث احلام
- من اضغاث الاحلام .

- وبينا كانت الاحلام مضغة في افواه المتكلمين من البدو الرحل دهشوا ، والراوي يحكي حكاية ابن شداد ،وبدوا كأنهم تماثيل من حجارة حين سمعوا خرير الماء في الصحراء، حين وجدوا ان الرمال غدت تربة خصباء وظهر الى جانب النخلة الوحيدة في الواحة حشد من الاشجار . كل شيء امامهم تبدل وفي طرفة عين الا العجائز .

- ياإلهي ..

- السماء بدت وكأنها عشرة وانشطر الظلام وفقد القسم الثاني منه لونه الكالح . سجد الجميع : لابد انها معجزة .

- (بدهشة) اجل لابد انها معجزة .

- الاطفال ظهروا كما لم يظهروا من قبل في عنفوان وحيوية . فكر البعض من البكم : ماالسر في ذلك ؟

- (بتساؤل) كيف عرفت ذلك ؟

- ربما ... قال واحد من الصم - لأننا نسمي اطفالنا بأسماء الأنبياء . صمت الجميع ثم نطقوا : .. ربما .. نعم . وهم في غمرة الفرحة تأملوا القسم المظلم من السماء والراوي مازال يحكي حكاية ابن شداد . كان هناك قمر واحد ولم يكن في القسم المضيء شمس . (يسمع صدى عواء ذئب)

- ياالهي ..

- العواء نذير شؤم .

- اني احسد خيالك الواسع .

- انك لاتفهم ماأقول ..

- اعذرني .. الحقيقة اني ..

- أكان كلامي مبهما ؟

- كلا . انما .. الطريق وعرة وشاقة .

- ان الطريق ليست سهلة دائماً . لقد سرت في الطريق مرة وكانت تجربتي قاسية . بعض ايام قضيتها يكدني التعب ويتصبب العرق من جبيني وانتابني خلالها ارق رهيب حطم اعصابي وقدرتي على السيطرة على نفسي .

ـ ولم تصمد .

● لم احتمل الصمود . كانت الطريق صعوداً في صعود كمن يتسلق جبلا شديد الانحدار مصقولاً . لم يكن هناك نتوء أو بروز ، لم اتمكن . .

ـ لم تتمكن من الاستمرار ؟

● (بألم) ولكن . . ربما لو كانت قوتي معي وقتها لحفرت في الجبل نفقاً او عدداً من الحفر نقاط ارتكاز لأقدامي واصابعي .

ـ اين كانت قوتك ؟

● ربما فقدتها في الطريق او ربما لم اكن افكر جديابالعمل الذي انفذه.

ـ كيف ؟

● هبط الظلام فجأة وانا اخشى الظلام . .

ـ اعرف ذلك .

● كان الجميع من حولي يثبتون خيامهم في الارض وعندما تثبت الخيمة يهرعون الى داخلها . . ثم . .

ـ ثم ماذا ؟

● ثم تختفي الخيمة فجأة بمن فيها وهذا ما فتل في القوة .

ـ اعتقد انك تتوهم ذلك .

● لا أعتقد . لقد قرصت نفسي فتألمت . لم اكن احلم . لم اكن واهما .

ـ وبعد ؟

● حملت حجرا وضربته بحجر فنتج عن ذلك شرارة ما لبثت ان احرقت عشبا جافا بالقرب مني . . . .

ـ (يضحك) اتراك اكتشفت النار . . .

● (لا يكترث به) تلاشى الظلام فجأة وفرحت بل حلقت من الفرح . رحت اصرخ من السعادة وبكيت في آخر الامر . هطلت دموعي فأطفأت النار وعاد الظلام يخيم على المكان .

ـ ما هذا الذي تقوله ؟ لماذا بكيت ؟

● انها الحقيقة . وحين اشتعل العشب نارا رأيت الخيام جميعها . كانت الخيام شفافة . رأيتهم في داخلها ، منهم نياما ... ومنهم ...

ـ ومنهم ... ؟

● ومنهم ...

ـ لقد عيل صبري ... ماذا كانوا يفعلون ؟

● كانوا منهمكين في اشباع غرائزي فاشمأزت نفسي وتقيأت فعلا .

ـ الهذا بكيت ؟

● اشترك القيء والهموم في اطفاء اللهيب لم اعد احتمل رؤيتهم بهذا الشكل . لقد اصبت بصدمة .

ـ وماذا حدث ؟

● عدت كما كنت وحيداً الا انني كنت اسمع اللهاث والانفاس المتلاحقة والتأوهات المحمومة والعرق . كانت رائحة عرق اجسادهم غريبة لها رائحة العشب النتن .

ـ الم تتأثر ؟ لماذا صمت ؟

● تأثرت فعلا بعد اشمئزازي . اشتركت جميع حواسي للتأثير علي . قاومت قليلا ولكني لم استطع . قلت في نفسي : لماذا تخدع نفسك ؟ لماذا تكون مختلفا ... شاذا عن الآخرين ؟ لماذا تنظر الى الامور بصورة جدية

كما ينظر اليها الحمقى ؟ لماذا لا تكون مثل اولئك في الخيام ؟ اوعلى الاقل . .

- ماذا ؟

● (بألم) دعني أنسى كل شيء . اشمأزت الجوانب الطيبة في نفسي وقهقت الجوانب الاخرى . كانت القهقهات تحاول تمزيق الجوانب الخيرة وأشعر بها تتعلق بي طالبة مني حمايتها . (يتساءل وأسى) كيف احميها ؟

- ماذا فعلت ؟

● دعني أنسى كل شيء . ارجوك .

- (باصرار) ماذا فعلت ؟

● ظهرت امامي فتاة عارية تماما فأثار غنجها في غريزتي التي كانت مدفونة في نفسي ،ولا اشبعها الا في احلامي . رأيتها في صورة عاهرة ، والعاهرة تزيد من صخب الحياة ومجونها واستسلمت لي بعد مطاردة صغيرة وهي تضحك ضحكات صغيرة متلاحقة وفعلت ما فعله الآخرون . وامتزج عرق اجسادنا النتن . شعرت بعدها اني بهيمة لا أختلف عنهم في شيء .

- (يبلع لعابه بصعوبة) وبعد ؟ ماذا حدث ؟

● بعد ان انتهيت ضحكت مني وتقيأت ثم اختفت .

- عدت وحيدا من جديدا .

● اجل . اصبحت وحيدا وكان الظلام يعرض علي صداقته وهـذا ما ما كنت اخشاه . لم يتجرأ ان يفعل الظلام مـن قبل . لم اعد اثق بشيء . كنت كالحرباء تحت طاسة يتصايح الاطفال حولها يسألونها ان تريهم حظهم. كنت اتلون كل تارة بلون . وكانت الالوان غريبة لم اشاهدها حتى في قوس قزح . لم استطع تمييز اي لون اعرفه او عرفته ، وكأنني اصبت بعمى الالوان .

ولكنني كنت اشاهد الالوان ولا اقدر على اعطاء اي اسم لهـا . كانت هي بدورها تظهر وتختفي بسرعة . الطريق طويلة وشاقة وصبري نفد فلم اعد اعرف ما افعل وقد اصبحت مثل الآخرين بهيمة . (صمت) كان نظري معلقا في خيمة بعيدة عني .. وقفت مذهولا وانا اراها خالية الا من شاب يجلس في ركن من اركانها . اردت ان اقترب منه لأحدثه . شعرت انه يختلف عن الآخرين تماما . يختلف عني الآن . خفت ان أشوه لحظات تأملاتـه . خشيت ان يلعنني .

- لم افهم ما قصدت بقصتك هذه .

- (يصمت ثم يقول فجأة) اغفر لي .

- قف على قدميك . لماذا تسجد لي ؟ السجود لله وحده .

- (يقف على قدميه ويغوص بنصفه في الارض) لقد قال لي ذلك كل من قابلتهم . قالوا انهم لم يفهموا ما أقول .

- (يقف سلبيا ولا يقدم له اية مساعدة يصف غوص زميله في الارض رغم انهما يقفان على تربة واحدة) غرست قدماه في الارض .

- لقد اتهموني دائما بأني لا أفهم ما اقول . اغفر لي :

- (يتابع الوصف) غاصت ساقاه في الوحل حتى ركبتيه .

- لا أظن انك ستتهمني بانني احمق معتوه .

- (يصف زميله بصورة شبه مأساوية) نتسمر فلا نحرك ساكنا . طرقنا من الوحل كلها تغطيها في بعضها طحالب . غاصت قدماه في الوحل فضاع نصفه .

- حاول ان تفكر قليلا بالكلمات التي قلتها ...

- الوحل يغطيه حتى سرته ولا زال يغوص ...

ألم يفكر بالكلمات التي قلتها احدمن قبل؟ اودت ان اخبرك اياها..

الوحل يغطي فمه . الكلام يخرج بصعوبة وهو يحـاول عبثا بصق الوحل الذي بدأ يحشر نفسه في فمه ...

لماذا لا تصغي الي ؟ انت كالآخرين ...

غطى الوحل عيونه ثم اختفى كله في جوف الوحل وفقاعات تخرج من آن لآخر .لا بدانه لايزال حيا . سيموت . اسمع صدى صوته بوضوح (يسمع صـدى :اغفر لي) يريد مني ان اغفر له .ماذا يفيده ان غفرت له . لست شيئا يذكر فكيف اغفر له ؟ لست شيئا يذكر فكيف اغفر له ؟ كان صادقا في كل ما نطق به . الالم قد قتل فيه طاقاته الخيرة . لقد كان شجاعا بما فيه الكفاية . كان مخلصا . سنحفر هذه الكلمات على ضريحه ان كان له ضريح . او نكتب ... نخط في الوحل حيث مات هذه الكلمات : عاش حياة تختلف عنا ومات ميتة تختلف عن الناس الذين ماتوا حتى الآن . سيكون التأريخ الذي مات فيه: مات في اليوم الاول من تلك الايام .يوم شؤم مات فيه الانبياء . كان انسانا لم اكنه ولن يكون بمقـدوري ان اكونه في يوم من الايام . المجدلله في الاعالي وعلى الارض السلام . الارض التي نزرعها تنبت خيرا وسكينة . (يسمع صياح الديك) هذه نهاية المطاف والفجر الجديد الذي بزغ . كان احمقا . انهى حياته بيده . غرست مبادؤه في صدره . (يسمع صياح الديك من جديد) الفجر بزغ واي فجر . فجر بزغ في نهاية المطاف . (يسمع صياح الديك) .

بعد التخطي

خالد محي الدين البرادعي

الكويت

« حداء للأطفال »

ـ : شُقَّ سِتْرَ الصمت ، واخطُ ، وتكلمْ
إن ميلادك دنيا
وابتساماتك رؤيا
وخطىً تجتازها عن لَيْنِ المُختنقِ عَهْدٌ ..
لتراب أنت قدسيٌّ شذاهْ
وتسابيحُ هواهْ

نسمةُ الصبح تناديك صغيري
بعضها زغرودةٌ في شفتيكْ
وخيوطُ الضوء تهواك صغيري
بعضها مبتسمٌ في مقلتيكْ

ياصغيري ،

كلُّ ما في الكون لك ،

كل ما تحمله الأرض وما يضحك في وجه السماءْ

لاتقل إني مهاجرْ

أعبرُ الأرضَ «مجازاً»

قاصداً دنيا الحقيقةْ .

سلطةُ الأفيونِ تعمي المبصرينْ

وتحيلُ الليلَ حلماً ذهبياً ..

وضياءَ الشمسِ همّاً لايطاقْ

وتذكرْ ياصغيري ..

أن صنّاعَ الحروبْ

عبروا البحر الى عالمنا

فوق جسرٍ ، شيدَ بالسحر ، وحباتِ المسابحْ

لمهاوي حفَرٍ ذاتِ جوانحْ

دغدغتْ كهلاً قضى سبعين عاماً

عينهُ عينٌ ـ ضيعْ

ورؤاهُ المدلسُ ، حباتُ مسابحْ

يجهلُ السيرَ ، ويجتازُ السماواتِ بأقدامِ خيالهْ .

ـ : ياصغيري .. كان ذاكْ

يومَ كان الفكرُ كفراً في بلادي

يومَ كان الحربُ عرساً في بلادي

وغناءْ

كحداءٍ ، طيّرتْهُ الريحُ في صمتِ البوادي

يومَ كان المجدُ ثوباً في بلادي

فاقعاً ... يخبىءُ في طياتِهِ الصبحَ ...

ولونَ الغدْ .

وعلى النَّوْلِ الذي حيكَ تُحاكُ

كلمةُ الشعرِ ، وسروالُ الخليفه

ياصغيري :

لاصقٌ في الأرضِ قُلْ

إنْ تنقلْ إني مهاجرْ

تتفتح الدربَ لصنّاعِ الحروبْ

مرةً أخرى ، وصنّاعِ المسالخ

« وداع العائدين »

ـ : صباحَ اليومِ يا أماهُ أخبرني

ومرّ مرورُ طيرِ الصبحِ يوقظني

وطوّقني ..

وعلّقني ـ بنظرته ـ على متوثبِ الحدَقِ

ودسّ أصابعاً حرّى

تلملمُ شعريَ المنثورَ . عن كتفيّ عن عنقي

وودّعني وَداعَ الراحلِ المشدودِ بالعودِ
وودعني وداعَ الفارسِ المتقحّمِ النظراتِ بالأفقِ

صباحَ اليومِ يا أمّاهُ أخبرني
بأنّ وراءَ أجفاني
ربيعَ رؤىً ... يهيجُ ببسمةِ الحبِّ
وأن وراء أجفاني
شموعاً تهزمُ الديجورَ عن مجلوّلكِ الدربِ
وكنزاً سوف تقطفُ خيرَهُ الأجيالُ ...
مثلَ الموسمِ المخصبِ

وأخبرني .. بأن وراء مُنْتَسَمي
خباءً يصنعُ الإنسانَ بين الحبِّ واللهبِ
رأيتُهُ ورأيتُهُ يا أمّاهُ عن كثبِ
كما لم يذكرِ الماضونَ في الكتبِ
عن العشاق .. عن نظراتِ مجنونِ
يناجي عابرَ السُّحُبِ
ويقضي يومَهُ متنقلاً بين الحجارِ الغبرِ والسُّغَبِ
وَوَهْنَ وعورةِ الشُّعَبِ .
ورغمَ الجرحِ في الشفتينِ ...
شاهدتُ الغدَ المُخْضَلَّ خلفها
ورغم خشونة الكفّينِ ...

احسستُ الهوى كَجداولِ تجري وراءهما
وبارقُ تيَّمَنيكِ العينينْ ...
كَسَّرَ ألفَ ليلِ عن غدي ...
فرأيتُ فردوساً بليلها .

ولمّا طوَيْتُ عن مجدول شرْنقتي
ولمّا لمْ أعُدْ في وشْيِ مملكتي
كزهرةِ مخملِ .. طرّزْتُ لينها بذاكرتي
وحلماً ـ لم أعُدْ ـ يعلو على أفراس أخيلتي
تبسم فارسي ..
وأدارَ في يمناهُ قنبلةً
وفي يسراهُ سُنبلةً
وقال : سنصنعُ الدنيا غداً بهما
ونعمرُ عشّنا في الحقل فانتظري
ومَسّحَ قطرةً هربت من الجرحِ
بكُمّ قميصه « الكاكي »
وغابَ .. غيابَ سحرِ الحلمِ عن نظري .

التقدم والقلق

الكاتب الفرنسي : **جيرار بونو**

ترجمة : د. عبد الرحمن حميدة

عندما أرسل الأمريكان في تشرين الثاني ۱۹٦۹ ثلاثة فضائيين ، وطئت اقدام اثنين منهم أرض القمر ، بعد أن سبقهم في تموز ۱۹٦۹ اثنان آخران ، وبعد ان نجح رائدان سابقان في الدوران حول هذا الكوكب الصغير في ليلة عيد الميلاد من عام ۱۹٦۸ ، استطاع الانسان أن يبرهن على ان مطامح العلم والتقنية قد غدت جامحة لا حدود لها . وبعبارة اخرى يكفي أن نريد حتى نحقق .

ولكن ماذا نريد ؟ ففي تلك الليلة المباركة التي وُعِدَ فيها الأناس الطيبون من ذوي الارادة الحسنة بالسلام ، كم كان من بينهم ، رغم اعجابه اللامحدود بهذا الإنجاز الرائع الذي حققته المركبة ابولو ٨ ، من يفكر بأنه كان من الممكن تحويل هذه الأموال الطائلة التي بلغت ارقاماً فلكية ، والتي صرفت لتحقيق هذا النصر العلمي ، لاستعمالات أفضل وأكثر نفعاً ، كمكافحة السرطان مثلاً ؟ أو لتغذية جماهير الجياع في الهند ؟ أو حتى لجعل العمال الذين يقطنون الضواحي النائية يصلون الى مكان عملهم بسهولة ويسر وراحة أكبر ، وذلك بعد أن أصبح العلم الخادم المطيع الذي يقدم كل ما يُطلب منه ؛ سواء على شكل قنابل ذرية ، أم مراكز نووية لانتاج الكهرباء ، أم صواريخ ، أم سيارات أو مستشفيات ؟

ويجيب غرستفورد على هذا التساؤل بقوله : « هنا يكمن الخطأ » . والسيد غرستفورد مهندس استرالي يعمل خبيراً لدى هيئة الامم المتحدة ، ويدير منذ عام ١٩٦٢ مؤسسة العلوم والتكنولوجيا التابعة لدائرة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية . ويضيف الى ذلك قوله : « لقد اعتمدنا على العلم ، خلال ستة أعوام ، كي يوفر التقدم الاقتصادي ولكي يؤمن للعالم الرخاء . وقد اصبحنا اليوم نتساءل فيما اذا كنا نلعب دور السَّحَرة المتمرنين ، ذلك لأن للعلم منطقه الذي لا يعبأ كثيراً ودائماً بإرادة الناس » .

أضغاث أحلام : ولم يكن غرستفورد الوحيد الذي ساوره القلق . ففي شهر كانون الاول عام ١٩٦٨ اجتمعت فئة من كبار العلماء الامريكان تحت اشراف « جمعية تقدم العلوم » في «مدينة دالاس» ، وفضحوا مساوىء التكنولوجيا الظافرة .

وفي الثاني والعشرين من مايس من العام نفسه ، طلبت حكومة السويد رسمياً ، خلال اجتماع الدورة الرابعة والأربعين لهيئة الامم المتحدة ، دراسة مخاطر الحياة العصرية التي تهدد الانسانية قاطبة .

وقد كان بامكان الاقطار السائرة في طريق النمو ، أو المتخلفة ، والمتعطشة للكثير من الكهرباء والتوظيفات الصناعية ، الا تعير هذا الاقتراح اهتماماً ، أو أن تعتبر العرض السويدي مناورة من جملة المناورات التي تقوم بها ، بين حين وآخر ، الدول المتقدمة . غير أن الحجج كانت مقنعة جداً بحيث ان هذا المشروع الذي تحمّس له مندوبو أربع وخمسين دولة ، نال موافقة الجميع بحماسة ، وذلك في الرابع من شهر كانون الاول عام ١٩٦٨ .

وهكذا تقرر انعقاد مؤتمر « الانسان وبيئته » في عام ١٩٧٢ . وصرح كارلوس شاغاس عالم البيولوجيا البرازيلي الذي يرأس اللجنة التحضيرية للمؤتمر المذكور بقوله : « يجب ان يكون هذا المؤتمر المقبل اول مناسبة للتصديق على اعلان حقيقي لحقوق الانسان في وجه التقدم » .

فقد انتهى القرن التاسع عشر مع الرؤى التي تخيلها الانسان ، وقد تغيرت ملامح عالمه بفعل التقدم المادي . وكان معرض باريس الدولي ، عام ١٩٠٠ ، برمته عبارة عن نشيد يمجّد العلم . ترى هل ستكون نهاية القرن العشرين الذي حقق ، بل تجاوز ، أكثر احلام آبائنا جموحاً واندفاعاً ، متميزة بادانة هذا التقدم المادي نفسه ؟ ذلك التقدم الذي لم يشعر به فعلاً اكثر من ثلاثة ارباع البشر ، والذي لم يتمتع به سوى الميسورون من سكان المدن الكبرى في امريكا الشمالية واوروبا واليابان . ذلك لأن قاع الصورة التي اخذت تتبدّى ملامحها ليست كما تصورها أجدادنا المباشرون .

فكلمة كهرباء ، كما كان يفهمها الناس في عام ١٩٠٠ ، لم تكن تعني أكثر من النور المنزلي. اما اليوم فتمثل لنا الجو الملوث بدخان المعامل الكهربائية الجبارة التي تجعل من نيويورك اكثر مدن العالم وساخة ، مما يسبب تلك الاشنيات الحاملة للأمراض واسماك الانهار المشعة بفعل فضلات الافران الذرية . ولقد كانت السيارة في البدء متعة ، عندما كانت تقطع ثلاثين كيلو متراً في الساعة ، اما اليوم فتوحي لنا بحوادث الطرق المفجعة وعرقلة السير التي لا يمكن التخلص منها في المدن التي تمتد ضواحيها كأذرع الاخطبوط . صحيح لقد زاد إنسان الاقطار المتقدمة من امكانات سعادته ، ولكنه يدفع غرامتها بعملة لم يكن يتصورها مطلقاً .

لقد كان أول هاتف وأول مذياع عبارة عن أدوات تثير العجب . وكان يعتقد الناس ان دور العلم والتقنية ينحصر في تسهيل سبل العيش وتحسينها . ومن منا ينكر انها قد منحا الحياة جمالاً على جمال ؟ ولكن كلما وسّع العلم والتقنية امبراطوريتها كلما اكتشفنا انه كان هناك المزيد من سوء الفهم والتفاهم ، ذلك انهما استطاعا تغيير نسق حياتنا تغييراً جذرياً .

ترى هل نأكل الآن بشكل أفضل أم أسوأ من الماضي ؟ والجواب يختلف فيما اذا صدر عن رجل ذواقــــة للاطعمة ، او عن طبيب مختص بقواعد التغذية .

فالرجل العصري - وخاصة في الاقطار المتقدمة على الأقل - يستهلك على مدى العام فواكه تخرج من عنابر التبريد ، ولحماً مغلفــــاً بورق السيلوفان ، ونوماً كل جاهزة محفوظة أو مبردة . كما تربّى من أجله دجاجات حسب مقاييس

محددة ، وأبقار ملقّحة اصطناعياً ، وحبوب حسّنها علماء التحسين الوراثي ، وربما استهلك في المستقبل القريب شرائح لحم مصنوعة من البترول .

ومنذ عام ١٩٠٠ حتى أيامنا هذه قفز مدى العمر المرتقب للانسان من ٤٧ الى ٧١ سنة . وفي هذا تقدم لا ريب فيه . ولكن مفهوم العافية ذاته أصبح على غاية من التعقيد . فبعد ان كانت تعني في الماضي السلامة من المرض ـ ولعل هذا سبب سؤالنا بعد كل تحية : « كيف الصحة ؟ » ـ فقد أصبح على الانسان ، في المجتمعات الغنية ، اذا أراد ان يظل متمتعاً بكامل نشاطه وحيويته ، ان يحصن جسمه بعشرة لقاحات ضد أمراض معينة ، وسوف تخرج لنا معامل الامصال لقاحات واقية من التوعكات الخفيفة كالنزلات الصدرية أو الزكام ، كما ان على الانسان ان يراقب وزنه ، واتزان غذائه ، وان يكافح عوامل الهرم ، وان يخضع لأبحاث الضمان الاجتماعي التفتيشية المتواترة .

جوارب من حرير : ها نحن نكافح الأرق بحبوب منوّمة ، وبمهدّئات ضد الجسميات الحقيقة ، وبمسكنات ضد توتر الاعصاب وبعد قليل سنعتبر ـ بفضل أجهزة تكييف ـ الهواء كل تبدل في حرارة الطقس ، مهما كان ضئيلاً ، عدواناً صارخاً على سلامتنا الفيزيولوجية .

ان كل المشكلات تصدر عن العلم والتقنية ، ولكنهما لا يحلاّن كل المسائل ولا سيما التي يطرحها الناس عليها . فهما يصادفان مشكلات الناس عفوياً وعَرَضياً في طريقهما الخاص ، ويواجهانها من وجهة نظرهما البحتة ، وبالتالي يستطيعان تحويل هذه المسائل والتهرب منها ، وعندما تدخل طائرة الكونكورد حيز العمل عام ١٩٧٢ ، لن يحتاج المسافر من باريس الى نيويورك لوقت يزيد عن الوقت الذي يحتاج اليه للوصول الى المطار انطلاقاً من منزله .

لقد تنبأ احد المهندسين عام ١٩٣٨ بأن من الممكن ، في المستقبل ، تحاشي اصطدام الطائرات في الجو ، وكان معه الحق كل الحق . وعدد عشر وسائل تكنولوجية ، وكلها معقولة جداً ، يجب استخدامها لتلافي ذلك الخطر المرتقب . ولكنه لم يذكر الوسيلة الحادية عشر التي تفوقت على الجميع ، وهي الرادار ، ولم يكن يجوز له ذلك حينذاك ان يسهو عن هذه الوسيلة ، ذلك لأن ابحاثاً كانت تجري في ذلك الوقت ، ولكنها كانت تسير في اتجاه آخر ، وهو استخدام موجات الراديو القصيرة جداً .

فقد كان عدد من المهندسين الفرنسيين يقومون بتجربة انبوب بث جديد في باحة احد المعامل في ضواحي باريس ، وقد أزعجتهم كثرة الاصداء الطفيلية Parasites ، ولم يلبثوا أن وجدوا بعد قليل ان هذه الموجات كانت تعكسها اطارات الحديد الرقيقة التي تقي عجلات الدراجات من الطين ، تلك الدراجات التي يرصفها العمال عادة عند جدار المعمل . وهكذا ولد مبدأ الرادار .

وابتداء من عام ١٩٠٠ تضاعف دخل الفرد الفرنسي ثلاثة أضعاف، بعد أن جلب كل من العلم والتقنية معه الوفرة والرخاء ،ولكن حسب الشروط التي فرضناها . فالتقدم لم يسمح لكل السيدات بارتداء جوارب من حرير ، ذلك لأن كل أشجار توت العالم لاتكفي لتربية ما يكفي من ديدان القز . وهكذا تم اختراع الياف ، جديدة ، اصطناعية من النايلون .

السكن : كما أن التقدم لم يوفر لكل اسرة قصراً خاصاً ، حتى ولاشقة من الحجر المنحوت . وكان من الضروري ، لمواجهة التفجر الديموغرافي واتساع رقعة المدن ، اختراع « خلايا » ، كخلايا النحل ، مصنوعة من الاسمنت والزجاج

والفولاذ ، كما سماها المهندس الشهير لاكوربوزييه Le Corbusier . ويكمن أحد الأسباب الجوهرية لأزمة السكن الخانقة في فشل التقنية ذاتها ، التي لم تستطع حتى الآن ان تجدد كلياً طرائق البناء التقليدية .

وبما أن العالم اختراع بحد ذاته ، فإن التقدم يمكن أن يكون أكثر من تحويل . وراح رجال الاقتصاد يقيسون هذا التقدم استناداً الى هذه القرينة . فقد حسبوا أن ١٤٪ من أرباح الصناعة الاميركية قد تحقق من منتجات لم تكن معروفة قبل خمسة أعوام ، أي من منتجات لم تضف للمنتجات السابقة بقدر ما حلت محلها ، مثلما حل الترانزيستور مكان المذياع .

ولعل انتصار العلم في المغامرة الفضائية يعطينا فكرة في هذا المجال . فانطلاق الانسان في الفضاء الكوني قد حرره من سجنه الأرضي ، ولكنه قسره على العيش ضمن شروط واوضاع جديدة كلياً ، واصطناعية بكل ما في الكلمة من معنى . وتقدر مؤسسة الفضاء الاميركية NASA ان عدد المواد والمنتجات والعقاقير والاجهزة التي تستدعيها اسفار الفضاء يبلغ الألف في كل عام . فكل حركة يقوم بها رجال الفضاء في حالة انعدام الوزن ، وكل جهاز يستخدمونه ، يتطلبان اعادة النظر والمراجعة . فخلال الساعة التي قضاها المهندسان يوجين خرونوف والكسي إليسيف ، خارج مركبتها للتحقق من صحة تشغيل سويوز ٤ وسويوز ٥ ، كان وضعها اثناءها حرجاً جداً بحيث وجب مراقبة حرارتها الشرجية باستمرار .

على صفة الماء : يبدو كل انسان في الاقطار الصناعية ، حسب ابعاده ، وكأنه رجل فضاء مضطر لركوب متن صاروخ تكنولوجيا ، ذلك لأنه لم يبدل في نفس الوقت سوى الأشياء والعادات الاجتماعية . فمازال الانسان هو الانسان

المفكر homo sapiens الذي ظهر على سطح البسيطة قبل حوالي خمسين الف عام، والذي يقول عنه علماء البيولوجيا أنه لم يتطور ، لا من حيث قدراته الطبيعية ولا من حيث امكاناته النفسية والمعنوية .

نعم لا داعي للدهشة إذا عرفنا ان الانسان لايزال يحس بالغربة في الكون الذي انقذف فيه الآن والذي سيعيش فيه في المستقبل . وقد حصلت معلمات مدرسة سارسيل Sarcelles قرب باريس على برهان مقنع ، بأن جميع تلميذاتهن يحبذن التدفئة المركزية ، والحمامات المنزلية ، والنوافذ الزجاجية الواسعة . وفعلاً تبين بنتيجة استفتاء دقيق للرأي العام في مدينة سارسيل السكنية الجديدة أن ٨٠ بالمئة من السكان أعلنوا عن سعادتهم ورضاهم بحياتهم المادية ورفاهيتهم ، بينما انتقد الباقون بعض النواقص في وسائل الترف والتسهيلات المادية .

وبعدئذ طُلب من كل تلاميذ دور الحضانة ، في سارسيل ذاتها ، تخطيط رسمين يمثل اولهما المنزل الذي يعيش فيه كل منهم ، ويمثل الثاني البيت الذي يحلمون به . وبالنتيجة تبين أن الرسم الأول كان يوحي غالباً بفن موندريان Mondrian التجريدي أو برسوم فازاريلي Vasarely البدائية ، بينما كان الرسم الثاني يمثل على الأكثر بيتاً تقليدياً مغموراً بالخضرة على حافة الماء .

والدولة التي ظهرت فيها اوائل ناطحات السحاب ، وهي امريكا الشمالية ، هي التي يظهر فيها الناس أكثر تعلقاً من سواهم بالبيت الفردي ، المحاط بمرج أخضر ، والذي يحصدون أعشابه بالآلة الخاصة كل يوم أحد . والولايات المتحدة هي ذاتها أيضاً التي أصبحت بلد المخدرات وفوضى الشباب واضطرابات المدن . وليست الأزمة الاميركية أزمة سياسية ، بالمعنى التقليدي للكلمة ، بل أزمة تطرح على بساط البحث مغزى الحضارة التقنية نفسه .

أخطار خفية : تبلغ بعض هذه الأخطار درجة من الوضوح تجعل الجميع متفقين على نبذها كالحرب الذرية مثلاً . فمخزون القنابل الموجودة حالياً يبلغ أضعاف ما يكفي لإبادة كل مظهر من مظاهر الحياة الحيوانية والنباتية على سطح الأرض .

ولكن هناك أخطار أكثر دقة ، ذلك لأن العلم والتقنية هما ظاهرتان جديدتان ويحتاج الناس لبعض الوقت للتعرف على كل نتائجها . ومن الطبيعي أن تكون أكثر هذه النتائج اخطاراً هي تلك التي تظهر في آخر الأمر اذ لم يفكر أحد فيها . فقد استخدم الناس مضادات الحيويات كيفما اتفق ، أما الآن فلا يعرف الاخصائيون سبيلاً لتطهير بعض المستشفيات من بعض الجراثيم التي تقاوم كل العقاقير . وقد أدت شدة العناية الصحية الى تحويل بعض الأمراض الخفية التي تعترض صغار الأطفال الى امراض خطيرة كالبوليوميليت مثلاً .

وقد أصبحت المشكلة اليوم على مستوى وسائل العلم الحالية ، وعلى مستوى مؤسساته ، أي أصبحت على مستوى الكرة الأرضية . فقد كتب ميشيل باتيس ، المهندس والفيزيائي ، في مجلة اليونسكو ، عدد كانون الثاني ١٩٦٩ يقول : « لقد استطاع الانسان خلال فترة قصيرة جداً ، من تاريخه القصير ، ان يخضع الطبيعة لدرجة جعلته يتجه الآن نحو اغتيالها » . أما شاغاس فقد راح يعلن : « إذا ثابرنا على النهج الذي نسير فيه ، فسيخلو الجو من الاوكسجين تماماً خلال قرنين أو ثلاثة من الزمن » .

* * *

الزبدة او المدفع : إن الاعلام المتواصل والحوار الدائم ضروريان اذا أراد الانسان أن يشرف ، في يوم ما ، على هذا التقدم الذي هو من صنعه . ذلك

لانها يسمحان لوحدهما بإرساء اركان ديموقراطية علمية صحيحة . فلا يكفي أن تطلق الامم المتحدة صرخات تحذير وانذار قد تصبح بلا صدى . كما لا يكفي أبداً ان نطالب الناخبين بالتصويت الى جانب الزبدة او المدافع ، الى القوة الضاربة أو للمستشفيات ، أي أن نطلب اليهم ان يعطوا رأيهم حول نتائج غدا من المتأخر جداً تلافي ما ينجم عنها . وإذا كنا ندعي توجيه التقدم ، فيجب أن نمسك به من منابعه الاولى وان نتّبع مسيرة تطوره يوماً فيوماً . وعندها فقط تأخذ المشكلة أبعادها الحقيقية . فعندما يقف الانسان في مواجهة نفسه ، وعندما يوازن بين نتائج تصرفاته على المدى الطويل ، عندها فقط سيرى ان النزاع ليس قائماً بينه وبين تلك القوة التكنولوجية الخفية ، بقدر ما يقع في داخل ذاته .

قاعدة ذهبية : لقد كتب الفيزيائي غلين سيبورغ ، الذي يشغل الآن منصب رئيس اللجنة الاميركية للطاقة الذرية ، لمجلة نيويورك تايمس ، يقول : « ان التقدم ، قبل ان يكون مادياً يقاس بمليارات الدولارات أو بالاحصنة البخارية ، كان قبل كل شيء ثورة نفسية » .

* * *

وسواء كنا نعالج قضية الضجيج ، أم التلوث ، ام ازدحام المدن حتى الاختناق ، أم مشكلات المواصلات ، أم حبوب منع الحمل ، فإننا نجد دوماً نفس الاحجية الاضافية ، التي تتجاوز حسابات الفائدة والربح .

معالم الكرامة في الفكر العربي

تأليف : د. عادل العوا

عرض وتحليل : محمد الراشد

لاشك ان الحديث عن الكرامة العربية عبر تاريخنا الحضاري امر من الأهمية بمكان، سيا في هذه المرحلة التي يخوض فيها الانسان والعقل العربي مخاضاً وجودياً قوامه التأكيد على الذات والاصالة العربيتين من خلال اطاريها القومي والانساني معاً .

الكتاب الذي بين ايدينا الآن منطلق علمي ومحاولة ناجحة في البحث والتحليل، تعتمد الدقة والوضوح وتحديد مفهوم الكرامة في الفكر العربي بشكل لم يسبق له مثيل حتى الآن وبذلك تمكن المؤلف الدكتور عادل العوا من تحديد سمات الكرامة العربية عبر

(١) معالم الكرامة في الفكر العربي ، دمشق ١٩٦٩ .

تاريخنا الطويل، اعتباراً من المفهوم اللغوي لمعنى الكرامة، متابعاً سيره عبر القرآن الكريم، معرجاً على كرامة عظماء العرب، انطلاقاً من الرسول العربي فالرجال العظام في ميادين التصوف، ليقف من ثم لدى مفهوم الكرامة العربية في ميدان الاخلاق والأدب قديماً وحديثاً.

ويبدأ الدكتور العوا برصد مشكلة الكرامة الانسانية من خلال آراء اخوان الصفا وخلان الوفا الذين ذهبوا « في هذا المجال الى الكشف عن (قيمة) الانسان الصحيحة بالنظر الى وضعه الطبيعي والشرعي والفعلي، وانطلقوا من ان الانسان كائن عاقل حر مختار يعيش في مجتمع ويبني حضارة ويسلك سلوكاً واعياً مسؤولاً ينبغي ان يكون في الوقت نفسه سلوكاً امثل كريماً يليق بالانسانية التي يتميز بها عن سائر الاحياء » [1]. ثم يقف قليـــلاً لدى النظرة اللغوية والاسلامية لمفهوم الكرامة، متابعاً بحثه وتحليله عبر كرامة الأشخاص، فالكرامة في الفكر الصوفي، ليبذر الفصل الرابع لمجال الكرامة في الأخلاق، موضحاً رأي المفكرين الأخلاقيين العرب، أمثال الطبري الذي يوسع آفاق المكارم الأخلاقية بشكل تشمل فيه كافة العلاقات الانسانية على اختلاف انواعها.

لكننا « لاينفرد الطبري باعتبار هذا الشمول الكبير، وانما نجد سائر مفكري الاخلاق من العرب والمسلمين ينهجون هذا النهج الوسيع. وبعضهم يربط معنى الأخـــلاق الكريمة ربطاً اوثق بمشاغل دينية أو فلسفية أو صوفية » [2] كالماوردي ومسكويه والغزالي والخوارزمي وغيرهم. ثم يضرب لنا المؤلف امثلة على المكرمات ليسارع في تحديد معنى الكريم واللئيم حيث يقول: « والحق ان مفكري العرب والمسلـــين افاضوا في تبيان صبر الكرام وصبر اللئام » [3] منطلقاً من ثم الى ميدان حقوق الانسان وكمال النوع الانساني،

(١) ص ٢١ (٢) ص ١٥٦ (٣) ص ١٦٤

مستخلصاً بذلك فلسفة الكرامة الانسانية حيث يوضح لنا : « ليست الكرامة الانسانية بحصيلتها واحدة ـ وان كانت بجملتها واحدة ـ فطرية للانسان من حيث هو انسان » [1] كما يؤكد ابن مسكويه في بحثه عن السعادة .

. . .

وحينما يختتم بحثه عن مفهوم الكرامة ومداها في الأدب العربي ، قديمه وحديثه ، يستهل بحثه قائلاً : « حفل الأدب العربي ، وهو مرآة الفكر في قديمه وحديثه ، بطلب الكرامة وبقصد الاعراب عنها في صوره الفنية المختلفة من شعر ونثر وسجع ومقامة . وتميز الأدب العربي عن سائر اساليب التعبير الفكري بخصائص التذوق الجمالي والابتكار البديعي . وضم في تضاعيف الشكل دقائق المضمون ، وانطوى الهيكل الفني على خلجات الفكر النابض بالحياة » [2] حيث عمد الادباء والشعراء الى امتداح المكارم والفضائل وذم الخسة والرذائل .

ويؤكد الدكتور العوا أن « من بديهيات معنى الكرامة في الفكر امتداد نفوذ المرء الى اهله وحماية الكريم جاره » [3] .

وهنا يتابع المؤلف قائلاً : « ولا ريب في ان هذا الموضوع الوسيع ينكشف عن وعي العرب قديماً بتضامنهم القومي ، واعرابهم عن هذا الشعور بالافتخار بمناقبهم الأصلية ومزاياهم العريقة وخصائصهم التي يعتزون بها ، ولا سيما في حلبة الذود عن كرامتهم الاجتماعية والرد على من طعنهم فيها ، ولا سيما من الشعوبيين » .

. . .

وبعد هذه الوقفة لدى معنى الكرامة ومداها في الأدب العربي القديم ، يعمد المؤلف الى الوقوف عند الكرامة بالمعنى القومي والاجتماعي حيث تطور

(١) ص ١٨٨ (٢) ص ١٩٥ (٣) ص ٢٠٣

مفهوم الكرامة الانسانية لدى العربي ، وذلك كنتيجة حتمية للوعي والتقدم : « ذلك ان التطور التاريخي الأمة العربية جعلها تنزع في العصور الحديثة شطر فهم الكرامة بالمعنى القومي والاجتماعي » (١) . ونحن نتحسس ذلك بشكل جلي واضح من قصائد الشعراء ومقالات الكتاب .

ويختتم الدكتور عادل العوا كتابه ببحث سريع عن الكرامة العربية وكارثة فلسطين ، تلك الكارثة التي هزت الوجدان العربي وأيقظته من سباته العميق على استصراخ الكرامة القومية على اقلام الأدباء ، الذين اعلنوا ثورتهم على الاستعمار والاضطهاد وراحوا يؤكدون اصالة العربي وحريته وحقه في استرداد ارضه السليبة التي رجمها الصهاينة .

ولم ينحصر هذا المد الثوري ضمن اطار معين « امتدت ارتكاسات النكبة من اوساط الشعر والفكر الى سائر الأوساط القيادية ، وعاشت الأمة العربية في كثير من اقطارها ظروف انقلابات شتى ، التقت اهدافها بأهداف مطالب اجتماعية واقتصادية مواكبة » (٢) . واتضحت بذلك جوانب ثقافية وصحية وحياتية نابعة من صميم مضامين كرامة الانسان العربي .

(١) ص ٢١٢ (٢) ص ٢٢١ .

دمشق (١)

عرض : ظافر عبد الواحد

يبحث هذا الكتاب في الخصائص الطبيعية لمدينة دمشق، ونموها العمراني، وسكانها، ومورفولوجيتها، وعلاقاتها المكانية، ونموها، مع محاولة لوضع تخطيط جديد لها .

فيشرح المؤلف كيف نشأت دمشق قرية على ضفة بردى ، عمرها الآراميون واتسعت في زمنهم ، وكان بناء البيوت وشق الطرقات خاضعين لطبيعة الأرض . وعندما ألحقت دمشق بامبراطورية الاسكندر ، أسست الى شرقي المدينة الآرامية الأصلية المتجمعة حول معبدها ، مدينة جديدة على شكل رقعة الشطرنج . أما شوارع القرون الوسطى فقد كانت تنتهي بزوايا لا منافذ لها ، وكان الخط المستقيم نادراً فيها ، وتكاد لا تتسع أحياناً لمرور رجل واحد .

وفي سنة ١٩٣٧ وضع المهندسان الفرنسيان دانجه وإيكوشار أول مخطط

(١) الدكتور صفوح خير ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٦٩

تنظيمي عام لمدينة دمشق، وهو عبارة عن شبكات شوارع رئيسية، تصل مساحات مختلفة الشكل بميادين دائرية أو مضلعة ذات أشكال هندسية منتظمة ، وشبكة شوارع ثانوية أقل أهمية من الأولى ، تصل بين الشوارع الرئيسية . وهكذا طبق الفرنسيون في دمشق مبادىء التخطيط المعروفة لديهم منذ عهد هوسمان ونابليون الثالث .

وشعرت دمشق في أعقاب الحرب العالمية الثانية بأن مخططها العام عاد لا يفي بحاجات مجتمعها المتطور ومقتضياته ، وتم الاتفاق مع (إيكوشار) على وضع مخطط يحافظ على المنطقة الخضراء ويركز التوسع على المناطق الجرداء من المدينة ، ويهتم بصيانة الطابع التاريخي .

ويشرح المؤلف مشروع «إيكوشار» الذي يتلخص في أن تتابع دمشق نموها وهي متكئة على جبل قاسيون ، وأن تستفيد من الغوطة التي تجلب بامتدادها ضمن المدينة الظل والرطوبة الضروريين لتحسين مناخ دمشق خلال فصل الصيف المعروف بشدة جفافه وارتفاع حرارته .

واستجاب إيكوشار لملاحظات الأثريين ، فبعد أن اقترح هدم قسم من سوق الحميدية لكشف الواجهة الجنوبية للقلعة ، اقتنع بالحل الذي اقترحه عبد القادر الريحاوي بفتح ممر بين القلعة وسوق الحميدية [1] .

ويروي د . صفوح خير تاريخ جر مياه عين الفيجة إلى مدينة دمشق . فيرجح أن استخدام مياه هذا النبع قديم جداً ، بدليل وجود آثار قناة قديمة محفورة على سفوح الجبال المشرفة على وادي بردى، تصل مابين نبع الفيجة ومنطقة

---

(١) عبد القادر الريحاوي ، مدينة دمشق ، تراثها ومعالمها التاريخية ، دمشق ١٩٦٩ ص ٩١

الصالحية في دمشق ، تشاهد آثارها بوضوح عند قرية « رأس العين » « ويعود تاريخها الى العهد الروماني أو ما قبله [1] » . ولكن تخريب القناة اضطر أهالي دمشق للعودة الى مياه الأنهـــار . وإثر انتشار وباء الكوليرا بين سكان دمشق ، في أواخر القرن التاسع عشر ، اتجهت الأنظار من جديد الى الفيجة . وبدىء بجر المياه سنة ١٩٠٨ ، ولكن كميتها لم تغن السكان عن مياه الآبار . وفي عام ١٩٢٢ تأسست لجنة وطنية ، استطاعت الحصول سنة ١٩٢٤ على امتياز إسالة مياه الفيجة الى بيوت دمشق ، وأنجز المشروع سنة ١٩٣٢ . وبعـــد حوالي ٢٠ سنة أصبحت الشبكة المائية لا تتلاءم مع توسع المدينة ، فاستقدم المهندس الفرنسي « موريس فونتين » الذي وضع تقريرين سنة ١٩٥٣ وسنة ١٩٦٣ . واقترح في التقرير الاول برنامجاً لتحسين توزيع المياه يجري تنفيذه على مرحلتين : تنحصر المرحلة الاولى بتنظيم شبكة مائية توفر المياه لجميع المساكن ، أي بمعدل ٥٠ الف متر مكعب يومياً ، كما تؤمن الضغط الكافي لجميع الأبنية التي يزيد ارتفاعها على ٢٥ متراً في مختلف أنحاء المدينة . وقدر الخبير الفرنسي لإنجاز هـــذه المرحلة مدة عشر سنوات ، تؤمن المياه لمدينة دمشق مدة عشرين سنة . وقد أنشىء أحد خزانات المشروع ، وركبت القساطل . ولكن استهلاك المياه تضاعف خلال عشر سنوات . وكان الخبير الفرنسي يظن أن دمشق لن تحتاج للشروع بالمرحلة الثانية قبل عام ١٩٧٥ ، وتنحصر اعمال هـذه المرحلة في توسيع شبكة التوزيع بحيث تؤمن ما لا يقل عن ٩٠ الف متر مكعب من الماء يومياً .

ويقدر « فونتين » أن مجموع الاستهلاك سيبلغ ٢٣٠ الف متر مكعب

---

(١) أحمد وصفي زكريا ، الريف السوري ، الجزء الثاني ، دمشق ١٩٥٧ ص ٣٤٤

من المياة في اليوم في دمشق في صيف عام ١٩٩٠ وهذه الكمية يمكن الحصول عليها من نبع الفيجة نفسه ، كما تستطيع قناة الجر استيعابها ونقلها الى المدينة .

وحين يصف د . صفوح خير نظام جريان المياه في نهر بردى ، يقول : « يتغذى نهر بردى من مصادر مختلفة ، يقع معظمها في منطقة جبال لبنان الشرقية التي تضم القسم الأعلى والاوسط من مجراه . ففي منخفض الزبداني ووادي بردى تتجمع مياه الامطار على شكل سيول عديدة تصب في نهر بردى الذي يجري في اخفض نقاط حوضه ؛ ولا تلبث الثلوج التي تغطي بعض المرتفعات أن تشارك في تزويد النهر ، إذ تذوب تدريجياً مع ارتفاع منسوب المياه وزيادة تصريفها الى حدها الاقصى في فصل الربيع ، وقد تؤدي احياناً الى حدوث فيضانات شديدة »[1].

ويعتقد أن أصل نبع نهر بردى « من قرية اسمها (قنوى) وقد دمرت هذه القرية ، ومكانها الآن مزرعة تسمى (حوش يحد) ، ويحتمل أن يكون النبع الاصلي هذا (عين حور) التي هي الآن أكبر عين تغذي بردى قرب منبعه »[2].

ويعلـــل د . عزة النص قلة عدد سكان دمشق في إحصائية سنة ١٨٨٤ « ١٦٠٠٠٠ نسمة » ، بامتناع كثير من السكان عن تسجيل أنفسهم لدى دوائر الدولة هرباً من الخدمة العسكرية[3] .

---

(١) الدكتور صفوح خير ، دمشق ص ١٠٦

(٢) محمد عبد السلام حافظ ، بردى ، الجزء الاول ، رسالة جامعية ، جامعة دمشق ١٩٦٩ ص ٧

(٣) الدكتور عزة النص ، جغرافية السكان في سورية ص ٦ محاضرات غير مطبوعة

ويرى د . نظيم الموصلي أن البيت العربي القديم في دمشق ما يزال يحتفظ بكثير من أوضاعه القديمة ، ويخضع « للوسط الذي يفرض عليه مادة البناء المحلية . وهو يظهر لنا مدى تلاؤم الانسان مع بيئته الطبيعية ومستواه المعيشي ، كما يعكس لنا مدى التطور الاجتماعي والثقافي الذي وصل اليه » (١) .

ويؤكد د . صفوح خير أن دمشق لا تستمد أهميتها ومكانتها من تاريخها ونهضتها الاقتصادية فحسب ، وانما من مواصلاتها التجارية مع العالم الخارجي أيضاً ، ويلاحظ أن كلاً من هذه العوامل مرتبط بالآخر أوثق ارتباط .

ورغم الاخطاء في الجدول « ٥٠ » فإن ما يحاول إثباته ، من توسط دمشق بين عواصم الشرق الاوسط ، صحيح . ويرى د . صفوح خير أن مثل هذا الموقع لا يأتي بفائدة عندما يكون في منطقة صحراوية غير مستثمرة أو غير قابلة للاستثمار ، كما أن القول بهذا المبدأ لا يجعل من دمشق أكثر من وريثة تاريخ مجيد فحسب . ويتوقع أن تصبح دمشق المفترق الرئيسي للطرق في منطقة الشرق الاوسط ، إذا توسعت في عمرانها ونما اقتصادها .

ورغم أن الكتاب ألف قبل انشاء مطار دمشق الدولي الجديد ، فقد تحدث عن إنشاء هذا المطار على بعد ١٦ كيلو متراً تقريباً الى الشرق من مدينة دمشق ، وتوقع أن يشجع الشركات الأجنبية على العودة الى دمشق لاتخاذها قاعدة من قواعد الهبوط الهامة في الشرق الأوسط . وتوقع أن تجبر الحكومة السورية شركات الطيران العالمية على هبوط عدد من طائراتها في دمشق يتناسب مع عدد الطائرات التي تحلق فوق الأراضي السورية ، مما يؤدي الى توفير حركة واسعة

---

(١) الدكتور نظيم الموصلي ، محاضرات غير منشورة في جغرافية المساكن ١٩٦٠ — ١٩٦١ ص ٥

لمطار دمشق الجديد ، وتوجيه قسم من الوافدين الى سورية بطريق الجو الى مطار دمشق .

ويفضل د . صفوح خير إنشاء المطار في صحراء الديماس ، غرب دمشق. فاذا أثبتت الدراسة التفصيلية للأحوال الجوية ملاءمة هذه المنطقة ، وأن المرتفعات المحيطة بها لاتمنع من إشادة مثل هذا المطار الدولي الكبير ، فانه يمكن توفير منطقة المرج ، التي يقوم فيها المطار الحالي ، للزراعة . كما يمكن توفير ١٦ كيلو متراً تشغلها الطريق الواسعة التي تربط بين دمشق والمطار ، ذلك أن الاوتوستراد المقرر انشاؤه بين دمشق وبيروت يخترق صحراء الديماس .

ويلاحظ د . صفوح خير أن حركة النقل الجوية بين دمشق ومدينتي حلب ودير الزور آخذة في التوسع .

ونخلص الى القول إن سورية من أغنى البلاد بآثارها التي تجتذب كثيراً من السياح ، وأن النشاط الاقتصادي لدولة يزيد عدد سكانها عن الخمسة ملايين وتربو مساحتها على ١٨٥ الف كم² يقتضي إنشاء مطار دولي يستقبل قسماً كبيراً من العرب والاجانب . إلا أن إنشاء هذا المطار لن يكون الا أحد العوامل الضرورية لتنشيط حركة المسافرين ، فلا بد من تنظيم الاتصال بين المطار ومدينة دمشق ، وكذلك مع بقية المدن الاخرى ، دون اغفال التنظيمات السياحية المختلفة ، وفي طليعتها الفنادق ، التي لاتهتم بالطبقة الغنية فحسب ، وانما بالطبقة المتوسطة أيضاً التي ينتمي اليها معظم السياح .

* * *

ان كتاب (دمشق) الذي يقع في ٦٤٢ صفحة عدا فهرسي المواد والأشكال وأسماء المراجع العربية والاجنبية ، والذي يضم عدداً من الخرائط ، هو دراسة موسوعية في جغرافية المدن ، تتناول دمشق من النواحي الطبيعية والعمرانية والديموغرافية والطوبوغرافية والتموينية .

ستالين (١)

سيرة سياسية

عرض : فائق المحمد

لعل هذا الكتاب من أفضل الكتب التي ترجمت خلال هـذا العام نظراً لمحتواه التاريخي والسياسي والعقائدي ، فهو سيرة سياسية لحياة ستالين ، تضم بين دفتيها مسيرة الحركة البلشفية وأغاط الحكم فيها وموقف الحزب من الثورة ، ونظرة ستالين ، وموقفه العقائدي خاصة في الحرب الكونية الثانية ، حيث تصرف بمزيج وخليط من الجبن والبسالة ، والجدارة السياسية والطيش ، وبعد النظر وقصره ، فقد جمع في ملامحه ازدواجات وترسبات شتى يحسده عليها علماء النفس .

---

(١) اسحق دويتشر ، ستالين ، سيرة سياسية ، ترجمة فواز طرابلسي ، منشورات دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٩ .

ولد ستالين لحرفي حذاء عام ١٨٧٩ م كان قد تحرر من العبودية حديثاً، أدخل الصبي الى كلية الكهنوت في عاصمة جيورجيا واستمر فيها خمس سنوات ثم طرد نظراً لميوله السياسية واشتباه الرهبان به ، عمل بعدها موظفاً في مرصدجوي أباح له سرية العمل الحزبي. وفي ايلول ١٩٠١ ساهم باصدار جريدة (بريدزولاد - الكفاح) وهي أول صحيفة عمالية تصدر في القفقاس .

كانت كتاباته تموج بالرومانسية «ان العواصف وجداول الدم قداجتاحت أوروبا » . ولعب لينين دوراً بارزاً في تكوين فكر الشاب الطموح وعلمه النهج العقائدي والسياسي ، فأصبح الشاب منظماً ثورياً يحلل ويناقش ويمحص الأمور ويعتمد العلم والجدل « ليس اخطر على السلطة المستبدة من فضول الشعب » .

انتخب ستالين عضواً في اللجنة الاشتراكية الديموقراطية في تفليس(١) ثم انطلق الى باطوم(٢) ليعمل هناك داعية ومنظماً للحركة الاشتراكية ، ولاقى نجاحاً كبيراً أدى الى اعتقاله في ٥ نيسان ١٩٠٢ ونفيه الى سيبيريا ثلاث سنوات. انتخب خلال غيابه لعضوية اللجنة التنفيذية في القفقـــاس ، وهرب من السجن بمساعدة التنظيم السري للبلاشفة خلال فترة الحرب الروسية - اليابانية .

في تفليس وجد بذور الشقاق تذر قرنها بين البلاشفة والمناشفة فعقد العزم على تأييد معلمه لينين نظراً لأفكاره التي منحته الثقة والتعويض عما كان يعانيه من فقدان الثقة بالمجتمع ، وقاد أثناء ثورة ١٩٠٥ التظاهرات ، وأصدر عشية « الأحد الدموي » في العاصمة مع الحزب بياناً بعنوان « ياعمال القفقاس لقد دقت ساعة

---

(١) تفليس عاصمة جيورجيا القفقاسية .

(٢) باطوم مدينة روسية على الحدود التركية فيها مراكز صناعة النفط .

الثأر » وبما جاء فيه : « ان الحكم الفردي يخسر ركيزته الأساسية ، أي محاربيه المتفانين في خدمته » والتقى الشاب بالمعلم الكبير لينين واطلعه على أحدمنشوراته « مراجعة مختصرة للخلافات الحزبية » فأثار الشاب انتباه القائد ، ومهد بذلك للقائها الحقيقي الأول عندما انتخب ستالين عضواً للمؤتمر الوطني للحزب الديموقراطي الاشتراكي ، حيث دون ستالين انطباعاته « كم كانت خيبة أملي عظيمة عندما رأيت رجلاً عادي المنظر الى درجة كبيرة .. لايتميز بشيء » المقصود بذلك لينين وسنرى كم ستكون هذه الكلمات ذات وزن ودلالات أيام حكم ستالين الحديدي، وكانت يومها بنية الاكواخ ماتزال تسيطر عليه .

وقع الصدام الأول بين المعلم وتلميذه عندما عارض الثاني فكرة معلمه بالمشاركة في انتخابات « الدوما »[1] . وتزعم جبهة المعارضة بشأن اقتراح لينين تأميم أراضي الفلاحين ، وطالب بتوزيع الأرض على الفلاحين ومنحهم سندات تمليك ونجح في معارضته واقر اقتراحه . لعب ستالين دوراً بارزاً في تنمية خزينة الحزب بعد عام ١٩٠٥ وتقلص العضوية وابتعاد الجماهير عن الحزب بعد انتكاس الثورة الأولى ، ففي ٢٣ حزيران ١٩٠٧ قامت بتدبير من ستالين اكبر عملية ارهابية استولي فيها على اكثر من ربع مليون روبل من خزينة تفليس .

كانت صراحة لينين خلال فترة النضال السري تفوق التصور وتتسم بالمواجهة العلنية ، اذ كتب يقول : « ان الحزب الذي طالما فاخرنا بالانتماء اليه عام ١٩٠٥ و ١٩٠٦ و ١٩٠٧ لم يعد موجوداً » وبتاريخ ١٢ كانون الأول ١٩١٢ م أعلن لينين - في براغ - انشقاقه كلياً عن المناشفة ، واجريت انتخابات

---

(١) الدوما هو المجلس البلدي .

جديدة للجنة المركزية للحزب رشح المعلم فيها تلميذه لعضوية اللجنة . ولكن غياب التلميذ وجهل الآخرين له جعلاه يسقط في الانتخابات . فاستعمل لينين حق اللجنة في انتداب الاعضاء إليها وانتدبه ... بعد ذلك أخذ نجم ستالين بالبزوغ والنشاط على رقعة روسيا بأكملها إذ أنيطت به مسؤوليات كبيرة ، فأصدر « البرافدا » بتاريخ ٢٤ نيسان ١٩١٢ مصدرة ببيان افتتاحي بقلمه يكشف النقاب عن الانشقاق بين البلاشفة والمناشفة « إن الاتفاق التام في الآراء لايوجد إلا في المقابر» . ثم لم يلبث أن وعد العمال بالمصالحة بين الجماعتين فأثار بذلك حفيظة القائد ، خاصة بعد نجاح ستة من النواب البلاشفة في مجلس الدوما (١٩١٢) « بينما أحرز المناشفة سبعة مقاعد » . كان ستالين – يومها – يدعو للوحدة في الدوما ، بينما كان لينين يتبنى خطاً معادياً ، فعزل تلميذه من رئاسة تحرير البرافدا ، وكلفه بمهام أخرى جديدة ، كان لها فيما بعد أثر بارز في تكوين شخصية ستالين السياسية ، إذ قدم دراسة سماها « الحركة الاشتراكية الديموقراطية وقضايا القوميات » أثارت الدراسة انتباه لينين ، ولعبت دوراً بارزاً فيما بعد بتعيين ستالين مفوضاً للقوميات .

في عام ١٩١٦ اقتيد المساجين السياسيون والمجرمون ليمثلوا أمام لجنة طبية عسكرية تختبر إمكاناتهم للخدمة بعد ان تردى الوضع العسكري على مختلف الجبهات ، ومن المصادفات العجيبة أن ماريشال المستقبل (ستالين) يعفى من الخدمة نظراً لعاهة في يده اليسرى . تسلم ستالين القيادة الفعلية للحزب الشيوعي لمدة ثلاثة أسابيع بعد قيام ثورة شباط ١٩١٧ ، وقع خلالها في تناقضات وأزمات حادة ، منها الاندماج مع المناشفة ورأيه بالحكومة المؤقتة ، إذ كان يراوح بين الحيرة والتردد ، وخلال (أيام تموز) العصيبة أنيطت به مسؤوليات جسيمة أداها بثورية والتزام كليين .

أكد ستالين مواقفه الفردية قبل الثورة إذ نادى بامكانية قيام الثورة في روسيا وحدها « ينبغي أن نتخلى عن الفكرة البالية القائلة بأن أوربا هي التي سوف تدلنا على الطريق الواجب اتباعها » .

لم يلعب ستالين دوراً بارزاً أثناء قيام الثورة ولم يذكر اسمه أو تلمع شخصيته وآثر الاختفاء وراء الكواليس وتبنى مواقف أقرب الى السلب والهروب عندما أيد قضية « زينوفييف وكامينيف » اللذين وقفا في وجه الانتفاضة وفضحا موعد قيامها بتشهيرهما بها عن طريق الصحافة . ثم قدم استقالته من اللجنة المركزية للحزب ، وكان يومها رئيساً لتحرير « البرافدا » . فعل ذلك انتصاراً لرأي كامينيف الداعي لوقف الانتفاضة . ويصفه تروتسكي أيام الانتفاضة « كلما إتسعت رقعة الأحداث ، كلما تقلص دور ستالين فيها » . إلا أن هذا القول يحمل بعض التحامل ، لكن الأدعى للاستغراب أنه لم يحضر اجتماع اللجنة المركزية للحزب عشية الانتفاضة (١٧ تشرين أول) . يقول تروتسكي : « وقد آثر هذا المناور الحذر التزام الحياد في اللحظة الحرجة ، كان ينتظر مآل الانتفاضة قبل أن يلزم نفسه بموقف » . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان موقفه تجاه الثوريين الآخرين ينطوي على نوع من فقدان الثقة والتوازن النفسي ، خاصة عند هجومه على مكسيم غوركي (صديق المستقبل) ومجموعته من المثقفين « ان الثورة الروسية قد أطاحت بعدد لابأس به من الرجال المرموقين ... وبشكل عام كل الثوريين القدامى المرموقين لأنهم متقدمون في السن فقط ! » . وتابع : « نخشى أن هؤلاء المختطين يمارسون سحراً قاتلا على غوركي » وختم المقال بجملة قصيرة استقى منها فيما بعد جميع تصفياته المقبلة : « أن الثورة لاتستطيع أن تدفن موتاها ولا أن تتحسر عليهم » .

بقي ستالين بعد الثورة جرماً صغيراً يدور في فلك لينين ، واستفاد المعلم من تلميذه فلقنه ما يريد ، ولم يكن للطالب حدس سياسي كبير مما كان يدفع به أحياناً إلى الانحراف والتراجع أو التذبذب ، مما جعل لينين يتجاوزه ويغفل آراءه الفكرية ، ولكن الطالب عوض عن ذلك بصلابته التنفيذية والادارية . فبعد قيام الثورة بثلاثة أسابيع ظهر في « هلسنكي » ليعلن ـ باعتباره مفوض القوميات في الحكومة البلشفية ـ استقلال فنلندا . ولعبت البورجوازية دورها في تأليب الجماهير والتسلط على مراكز السلطة مما حدا بالحكومة البلشفية الى نقض حق تقرير المصير ، وأمام المؤتمر العام الثالث للسوفييت عرض ستالين المشكلة :

« إن مبدأ حق تقرير المصير للأمم الصغيرة لاينبغي أن يفهم على انه حق البورجوازية في تقرير المصير ، بل على انه حق الجماهير الكادحة في الأمة المعنية ، ينبغي استخدام حق تقرير المصير كوسيلة للنضال من أجل الاشتراكية » .

تطورت الأحداث بين روسيا وألمانيا ـ بعد الثورة ـ وفشلت كل خطب تروتسكي لحض الجماهير الكادحة في ألمانيا على الثورة ، وسقطت جميع خطبه وألعابه البهلوانية ومماطلاته السياسية أمام مؤتمر مفاوضات الصلح ، عندها برزت الخلافات عنيفة في أوساط الحزب ، ووقف ستالين ـ كعادته ـ عند كتف المعلم وصوّت بجانب رأيه الداعي الى السلام باعتبار السلطة الثورية عاجزة عن خوض حرب ثورية ضد الأمبريالية الألمانية ، وقال : « ان قبولنا بشعار الحرب الثورية يدفع بنا الى أحضان الامبرلية لامحالة » .

أضحت الثورة في خطر دائم ، وفي شهر حزيران من عام (١٩١٨) غادر رجلان موسكو للقيام بأخطر مهمة ، بعد غارات البيض والقوزاق والألمان والقوات الأميركية في سيبيريا والبريطانيين في الشمال والجنوب ، كان الرجلان

تروتسكي مفوض الحربية وستالين مفوض القوميات . توجه الأول الى سفياجسك، والثاني الى تساريتسين على الفولغا ، وكان التموين قد انقطع عن موسكو وهددت بالمجاعة .

وصل ستالين الى مقره وسرعان ماطالب بمنحه سلطات عسكرية استثنائية وأرسل يقول : «لو أن الخبراء العسكريين عندنا ـ وليسوا أكثر من اسكافيين !! ـ لم يتقاعسوا ولم يتكاسلوا لما كان انقطع الخط .. على كل حال فاذا أعيد ترميمه ، فلن يكون ذلك بفضل جهود العسكريين وإنما ضد إرادتهم » . كان هذا أول تعريض صريح ومكشوف بمفوض الحربية (تروتسكي) ، ومن هنا بدأ الخلاف يتسع ويبذر قرنه بين الرجلين ، وكانت أول بادرة من الخصومة العلنية بينهما وقوف ستالين في صف المعارضة ضد تروتسكي وفكرته الداعية لاستخدام الخبراء العسكريين من الجيش القيصري ، ثم احتضانه كتلة تساريتسين المعارضة للقيادة العسكرية البلشفية تعبيراً عن كبته وحسده لخصمه الذي أضحى في فترة قصيرة الشخصية الثانية بعد لينين . ولعبت بعد ذلك عوامل سياسية وايدلوجية تحرك هذا النزاع الأولي العفوي حتى انقلب إلى دراما عنيفة ذات فصول ومشاهد متعددة .

وفي العاشر من تموز ١٩١٨ هدد ستالين باستعمال صلاحياته إذا لم يمنح سلطات عسكرية استثنائية ، وهاجم تروتسكي وقيادته بحرارة ببرقيته : « إن عدم وجود تفويض خطي من تروتسكي لن يمنعني طبعاً من القيام بذلك ، وحاول القائد الكبير لجم هذه الخصومة وكبح جماح الرجلين عن طريق اخفاء رسائلهما معاً ، ومنحه لستالين سلطات خاصة بموافقة مفوض الحربية .

أخيراً تم النصر في تساريتسين على الحرس الابيض بشكل حاسم ، ولم

يلبث ذلك النصر أن تحول الى اسطورة حربية يدعيها كل من الرجلين المختصمين وكان لهذه المعركة فيا بعد شأن كبير على صفحات الصحف ، واعتبرها ستالين حصان طروادة الأسطوري وسنداً كافياً للمطالبة بالسلطة بعد خمس سنوات من المعركة ، ثم تحول اسم المدينة الى ستالينغراد بدلا من تساريتسين ، واخذت في الحرب العالمية الثانية دورها الستراتيجي القيادي ليثبت ستالين اسطورة مدينته وليدافع عن معركته الماضية ويؤكدها أمام التاريخ .

صوت ستالين ولينين بجانب الهجوم على وارسو واحتلالها وانشاء «سوفييت وارسو الأحمر» . وعارض تروتسكي الهجوم مقدراً نتائجه الوطنية على الشعب البولوني ، أما لينين فكان يأمل ان تكون بولونيـــا جسراً للوصول الى أوربا الغربية وكسراً لطوق المحكم لعزل روسيا عن أوربا .

أضاف ستالين لنفسه منصباً جديداً هو «مفوض مفتشية العمال والفلاحين» وأضحى عضواً في المكتب السياسي للحزب . وبذلك تحصنت لديه خيوط وصلاحيات ضخمة ، مهدت له الطريق للحكم . وفي ٣ نيسان ١٩٢٢ توطد مركزه عندما عين أميناً عاماً للجنة المركزية للحزب الشيوعي ، فأمسى شريكاً للمعلم . وبعد فترة وجيزة أصابت لينين نوبة الشلل الأولى وأفلتت منه أعنة الحكم ، واصبح ستالين رجل الدولة والحزب فسيطر على الجهاز الحكومي مستخدماً القهر والديكتاتورية والحزم . ولما أبل لينين من مرضه وعاد الى نشاطه السياسي أدرك الجو الغامض الذي تحياه الدولة والحزب والتداخل في الأعمال ، ولمس الأخطار المحدقة بالثورة ووجد موطن العلة والداء يكمن في مكاتب الأمانة العامة التي يرأسها ستالين . حاول لينين تدارك الأمور ، ولكن المرض أقعدة ثانية بنوبة شلل ردفت سابقتها . وأدلى باعترافه الخطير : «تروتسكي وستالين أقدر القـــادة في اللجنة المركزية

الحالية ، فاجأ وصفه هذا معظم قادة البلاشفة ، الذين كانوا يضعون ستالين في الدرجة الثانية فكرياً واداريا .

كانت خطورة المرحلة تتطلب حلولاً جذرية حاسمة ، ومبادهة فورية ، فانتقل لينين من مرحلة التلميح الى مرحلة التصريح ، خاصة وان تقرير جورجيا كشف ذنوب ستالين وأخطاءه الفادحة ، فاستقر رأي المعلم على « .. ستالين وقح جداً . اقترح على الرفاق أن يجدوا طريقاً ما لازاحته » . وقبل انعقاد مؤتمر الحزب بشهر واحد أصيب لينين بنوبة شلل حادة ، وكان قد وضع مع تروتسكي خطة كاملة لتنحية ستالين . واحس التلميذ بالخطر المحدق به فراح يدبج المقالات على صفحات البرافدا يمجد فيها مواهب المعلم ويكيل له الثناء رامياً من وراء ذلك الى كسب الزمن وتغطية الخصومة على الكرملين والجماهير ، وتظاهر بالود المحموم لتروتسكي اذ أبدى تراجعه عن كثير من آرائه السابقة بينما كان في الواقع يتصرف على هواه في إدارة الحكومة والحزب ، ويعمل في السر والعلن لصالحه الفردي ، فشكل التحالف الثلاثي داخل المكتب السياسي « ستالين - كامينيف - زينوفييف » . وكان هدف هذا الثلاثي منع تروتسكي من الوصول إلى سدة الحكم والحزب .

كسر ستالين شوكة خصومه ، ولم يعد يواجه خصوماً إلا من الدرجة الثانية « كامينيف ، زينوفييف » وفي آب ١٩٢٣ اندلعت الاضرابات في الصناعة نتيجة البطالة والمجاعة مما دفع الطبقة العاملة لليأس ، وازدادت المعارضة تماسكاً والتفافاً - مع فقدان التنسيق - ولكن الثلاثي أعطى البوليس صلاحيات واسعة تصل لدرجة معاقبة البلشفيين غير المتعاونين مع السلطة ، فشن تروتسكي هجوماً على الثلاثي علناً وفند أخطاءه ومزاعمه ، ودعمه في موقفه ستة واربعون شيوعياً لامعاً ، أصدروا جميعاً بياناً يتفق مع انتقادات تروتسكي . . طالت المهاترات

والاتهامات بين الطرفين فركن ستالين إلى الحيلة السياسية الصرفة بامتناعه عن دخول النزاع علنياً وإرخائه الحبل على غاربه للثنائي ليستعملا السباب والشتائم المقذعة ضد تروتسكي - وهذا مايزعزع مركزهما وهيبة خصمهما وبذلك ضرب عصفورين بحجر واحد .

بتاريخ ٢٧ كانون الأول ١٩٢٤ دعا ستالين لعقد مؤتمر وطني للحزب تمثل فيه الفروع المحلية بامناء سرها ورسمييها والمعينين فيها من قبل الأمانة العامة - أي من قبل ستالين - ليضمن نتائجه وليدعم وجهة نظر الثلاثي ولينتصر حزبياً على تروتسكي .

لم تقرأ وصية لينين الا بعد أربعة أشهر من وفاته ، وبحركة مسرحية هب زينوفييف لانقاذ شريكه في الحكم ، وأثبت بطلان مخاوف لينين التي تفضح ستالين وتطالب بتنحيته واسقاطه عن كرسي الامانة العامة . توصل الثلاثي لمرحلة من الغش والخداع اتهم فيها تروتسكي بالمروق والخروج عن النظرية اللينينية وأدين بتاريخه السياسي السابق عندما كان منشقياً أو معارضاً للينين .

عرض تروتسكي بخصومه عن طريق غير مباشر في « دروس اكتوبر[1] » وسمى « زينوفييف وكامينيف » ناطقين باسم الجناح اليميني ومفشلي الثورات .

كون ستالين آراءه في الاشتراكية في بلد واحد عام ٩٢٤ لتغدو فيما بعد الامتحان العسير الذي سيغتال جميع الذين لا يؤمنون به .

اقتبس تروتسكي نظريته في « الثورة الدائمة » من ماركس . وقد تنبأ بأن الظروف اللاحقة ستدفع الثورة من طورها المناقض للاقطاع الى طورها

(١) دروس اكتوبر كتاب يحوي مجموعة مناظرات سياسية لتروتسكي.

المناقض للرأسمالية وأعتقد بأن الثورة الروسية ستسقط إذا عجزت عن تخطي حدود روسيا الى أوربا الغربية . ألحقت بواضع هذه النظرية تهمة « المغامر » وحب الارهاب وأحيط بأشباح أخرى من التخويف والتنبيه ومرت شائعات مفادها أن لينين خوّف من هذه النظرية ورفضها .

ومضت فترة وجيزة ثم نفض الأمين العام يديه من الحلف الثلاثي وأخذ يراقب الأمور عن كثب متوجساً خيفة أن يلتقي الثنائي مع تروتسكي ويشكلوا تحالفاً موحداً ضده ، غير أن الحسد والكراهيـــة زادا من اضطراب صفوف خصومه عندما أومأ من بعيد الى امكانية التقائه بتروتسكي وراح يضرب بقبضة حديدية على جميع خصومه ، لايتورع عن التشريد والتجويع والبطش وأساليب التصفيات الجسدية .

اثناء انعقاد المؤتمر الرابع عشر للحزب لعب ستالين لعبته الكبرى وشن هجوماً عنيفاً فرق فيه خصومه وواجههم باتهامات شتى « المتخلفين » و « محطمي الاضرابات » وأرسل على جناح السرعة موفداً « كيروف » لمدينـــة لينتغراد لاستمالة الحزب فيها ولضمان خضوعها لأوامر الامانة العامة .

لاقى الأمين العام اتحاد خصومه بكلمة ساخرة « آه لقد صفحوا عن بعضهم البعض » ، ثم ركز حمـــلة عنيفة في الصحافة لكشف مواقف شريكيه السابقين المناقضة لرأي تروتسكي وراح يراجع مواقف تروتسكي المتهمة لشريكيه بما صدم الناس والحزب وجعل الأمين العام في مركز القوة ... لم تكن المعارضة الجديدة تحلم بتشكيل حزب جديد باعتبار أن أي حزب يمكن أن يلعب دوراً مضاداً للثورة ، ومن هنـا كانت مواقف الجميع جزئية وغامضة ومبتسرة موصومة بالندم والتقهقر ـ كل ذلك أتاح لستالين ابتلاع الجميع على دفعات دون أن يعاني عسر هضم .

خسر زينوفييف مقعده في المكتب السياسي وطرد أنصاره من مراكزهم.
وفي أواخر ١٩٢٦ فصل تروتسكي نفسه من المكتب السياسي، تلا ذلك أحداث سندت المعارضة إذ انقض (شان كاي شك) على الشيوعيين في الصين، وكان الأمين العام قد دعم موقف (كاي شك) سابقاً وطلب إلى الشيوعيين التعاون معه، واغتال مهاجر روسي ممثل روسيا في وارسو وقطعت بريطانيا علاقاتها بروسيا، وأدلى تروتسكي بتصريحه الشهير (تصريح كليانصو) متهماً السلطة السوفييتية بنقص في الفاعلية والحزم، وأعلن أنه سيناضل لإسقاطها. وفي ٧ تشرين أول وخلال أعياد الثورة قادت المعارضة مسيرات منفصلة طافت في شوارع موسكو ولينتغراد مما أدى إلى فصل تروتسكي وزينوفييف من الحزب، وأصبح الانتماء للمعارضة (لا يتفق مع عضوية الحزب) وطلب من جميع المعارضين أن يعلنوا صراحة ندمهم وتخليهم عن المعارضة ثمناً لاستمرار عضويتهم، فرفض تروتسكي ونفي إلى الما آتا بينما تراجع الآخرون وعادوا للحزب ولكن المؤتمر الحزبي رفض استسلامهم غير المشروط وترك للأمانة العامة البت في موضوعهم.

جاءت المرحلة الثانية من التصفيات ليصفي الأمين العام شركاءه الجدد (بوخارين، ريكوف، تومسكي) بحجة انتمائهم الى اليمين معتمداً طريقة تبديل الكراسي الجديدة بالقديمة طالباً من الحزبيين القدامى المفصولين التوبة والعودة للحزب، وأسقط في يد الكثيرين وعادوا.. إلا ان حدة المعارضة تزايدت أواخر ١٩٢٨ ونال تروتسكي احتراماً وتقديراً من مختلف الفئات الحزبية والجماهيرية واحترمه العدو والصديق، لذا اقترح الأمين العام طرده خارج روسيا ونفيه.

إن كاتبي سيرة ستالين ومعاصريه لا يصدقون الطريقة المرتجلة التي تمت

بها الثورة الثانية (الصناعية الزراعية) لأنهم يعرفون مواقف ستالين المعادية للصراع الطبقي في الأرياف ، ففي أواخر ١٩٢٩ تعالت أصداء أوامر ستالين « نضال شامل ضد الكولاك » بينما كانت الصناعة الروسية تستعيد قوتها لما كانت عليه قبل الثورة ، ويصرح الأمين العام « إن المصانع والمنشآت الروسية تستحق كل نقد » وقد بلغ الاستثمار الصناعي ٣٤٠٠ مليون روبل أي أربعة أضعاف المبلغ الذي رصد في الموازنة لهذا الغرض. وفي العام التالي قال ستالين « اننا نقف بحزم الى جانب الفلاح الصغير وسنفعل كل ما بوسعنا لتحسين اوضاعه وتسهيل انتقاله الى التعاونية » وأبلغ مستمعيه بأنه تجب مصادرة أراضي الكولاك ومن ثم منعهم من الانضمام الى المزارع الجماعية المقترحه ، وهذا يحرم عشرة ملايين نسمة من حق الحياة .

بدت أعمال ستالين الزراعية ـ الصناعية ضرباً من الجنون الهستيري فالطاقة الانتاجية عجزت والمزارع تهدمت ومبادىء الاقتصاد قوضت وضربت عرض الحائط ، وأزهقت أرواح بشرية كثيرة ، ولما صحا الحاكم الديكتاتور من حلمه حاول ـ كعادته ـ أن يحمل المسؤولية لغيره ، فأعلن أن « المزارع الجماعية لا تقام بالقوة ففعل ذلك عمل غبي ورجعي » وبذلك تنصل من كل جرائمه ووصم بها المكتب السياسي واللجنة المركزية اللتين احتجتا بعنف ، فاضطر الأمين العام لاصدار بيان أعلن فيه أن وقف العنف كان رأي اللجنة المركزية .

بعد هذه الموجات اللاعقلانية بدأت رياح التغيير تسري في أقرب مقربي الأمين العام فوزعت مذكرات سرية تطالب بازاحته مما زاد حمى الصراع في نفسه حتى وصلت الامور الى زوجته التي انتحرت احتجاجاً على سياسته ومواقفه القمعية ، ليمثل بعد انتحارها دوراً مسرحياً من أنجح أدواره « قد أكون أصبحت عائقاً

في سبيل وحدة الحزب ، اذا كان الامر كذلك أيها الرفاق ، فانني على استعداد للانزواء ، وبالطبع لم يجرؤ أحد على مواجهته بالحقيقة بل تجرعوا السم جميعاً وطالبوه بالاستمرار .

بعد فترة وجيزة أصبح للنظام الستاليني ركائزه المتينة المعتمدة على الاداريين « البيروقراطيين » أصحاب المصالح المكتسبة ، وكان يشعر أن حكمه أكثر أماناً وصلابة اذا ما استقر على تسلسل هرمي من المصالح والتأثيرات .

أعطت الثورة الثانية نتائج باهرة وحققت قفزات سريعة وتطورات كبرى قلبت المجتمع الروسي وقضت على طبيعته الرعوية الاقطاعية ، وأصبح مجتمعاً تقنياً تسوده المكننة والتخطيط ، ووصلت روسيا لدرجة من القوة جعلت الروس البيض - خارج روسيا - يصفقون طرباً ، إلا أن هذه الاعمال كانت بعيدة - نوعاً ما - عن المسار الاشتراكي ، لأنها أخضعت الشعب للمهانة والسخرة والاذلال وأذكت الفروق الطبقية وابتعدت عن روح الماركسية نحو الاشتراكية في بلد واحد .

كان ستالين يأمل أن يؤدي نفي تروتسكي لجزيرة « برنيبيكو » التركية الى شل حركته ، بيد أن المنفي استعمل سلاحه - القلم - فأصدر (نشرة المعارضة) وضمنها شروحاً وتفصيلات وتحليلات للوضع الشيوعي والسوفيتي . ولاقت النشرة رواجاً في الأوساط المثقفة وتداولتها بسرية وكتمان . زار أحد قادة الشرطة السرية تروتسكي في منفاه فأعدمه الأمين العام ، فانطلقت المذابح الجماعية وبراكين الدم ، اذ أصدر ستالين أمراً بحرمان تروتسكي وعائلته من حق الوطنية والجنسية السوفيتية .

اعتمد ستالين بحكمه على خلق الجبهات والصفوف المتعارضة ووقف منها

موقف الحكم ، وليلعب دور الرابح الأخير في اللعبة ، ففي عام ١٩٣٤ استصدر قراراً بالعفو عن متمردي الكولاك ، وبعد ثلاثة أشهر استصدر قراراً يعلن فيه المسؤولية الجماعية لكل عائلة يرتكب أفرادها خيانة أو مخالفة ضد الدولة .

ثم استصدر مرسوماً مناقضاً يسمح للمعارضة بممارسة نشاطهـــا السياسي والاعلامي والحزبي، كانت نتيجة ذلك اغتيال اللواء (كيروف[1]) في لينتغراد. نتيجة الاغتيال سيق الشريكان السابقان للسجن وأدينا بجريمة الاغتيال لأن المغتال كان ينظر اليها باكبار وإجلال ؟ !

كان وضع الفكر يتردى وتتغلغل فيه الحماقات والزيف والكذب ، فالتاريخ يملى من قبـــل الأمانة العامة للحزب ، والمخالفون ينحون من ممارسة التفكير ويجلدون ويساطون ويتهمون بالمرطقة ، سادت المفردات الغثة والأساليب السوقية والتكرار محاراة لأسلوب القائد (الملهم) .

تبرأ ستالين من جميع الأعراف والقيم الحزبية وضرب المثل بمحاكماته الصورية ولم ينج منه أحد الا ظله، ففي آب ١٩٣٦ جرت محاكمة « الستة عشر » وأعدموا ، وجرت محاكمة (السبعة عشر) في كانون الثـــاني ١٩٣٧ ،وحوكم الجنرالات وقادة الجيش محاكمات سرية،وفي آذار ١٩٣٨ جرت محاكمة (الواحد والعشرين) وشملت المحاكمات المفوضين السياسيين والموجهين وأعضاء المكتب السياسي نفسه ،... أعدم الكثيرون بدون محاكمة ، أو أدينوا بجرائم لفقتهـا السلطة وأذعنوا لها تحت التهديد والوعيد ، بذلك صفى الأمين العام جميع القادة والزعماء الخطيرين عليه .

---

(١) كيروف ضابط كبير في القوات السوفيتية ، قتله المعارضة . حكم زينوفييف بعشر سنوات ، وكامينييف بخمس سنوات نتيجة المحاكمة الصورية لأن الشاب القاتل كان يحترم الرجلين فأدينا وسجنا .

لم ينج الجيش والشعب ،ففي الجيش خطط الجنرالات لانقلاب عسكري بقيادة توخاتشيفسكي يتولى اغتيال ستالين ومهاجمة الشرطة السياسية ، شارك في الخطة موجهون سياسيون وجنرالات منهم قائد حامية لينغراد ، وقبل الموعد انكشفت المؤامرة فأعدم أبطالها وسيق الأبرياء ، حتى كتب تروتسكي من أوسلو يقول « ستالين أشبه مايكون برجل يريد أن يطفىء عطشه بشرب المياه المالحة». شملت الاعدامات الشيوعيين الألمان والبولنديين والمجريين . لم يفلت من المقصلة الا رأس تروتسكي الذي راح ستالين يرقبه بحذر ، فضغط على النروج حتى طردته الى المكسيك ، وهناك أغتيل أبناؤه تباعاً وفي العشرين من آب ١٩٤٠ ضربت الستالينية سهمها المحموم في صدر تروتسكي فأودته قتيلاً .

لم يكن موقف ستالين من النازية وهتلر مبنياً على فروض ومقدمات بل كان مرتجلاً يتولد عبر اللحظة الآنية ، اذ كان يرى أن ألمانيا المعبرة عن ضعف الرأسمالية لن تعمر طويلاً ، ثم سادته المخاوف والشكوك منها فاقترح على برلين توقيع معاهدة روسية ألمانية . رفض هتلر ووقع ستالين في مأزق جديد وهو الدفاع عن الحدود الروسية ضد غزو ألمـــاني محتمل ، خاصة وأن دول حوض الدانوب لم تكن قد اعترفت بعد بالحكومة السوفيتية .

انضم ستالين حيال الخطر الداهم لعصبة الامم عام ١٩٣٤ ،فحطم بذلك مقولة لينين عن العصبة « انها مغارة اللصوص » ، واستقبل ـ انطوني ايدن ـ الوزير البريطاني ، وقابل ـ لافال ـ الفرنسي ، واثنى على مواقف فرنسا الدفاعية، وفي المؤتمر السابع للأممية ١٩٣٥ أعلن ان الدفاع عن الديموقراطية (١) ضد الفاشية هو المهمة

(١) نزع بهذه التسمية كلمة البورجوازية بحذر كي لايثير الحكومات البورجوازية .

الأساسية للحركة العمالية ، وهذا انحراف فاضح عن النظام الداخلي للكومنترن ، وخاصة عن الشروط « الواحد والعشرين للعضوية »[1] هناك موقف صريح وعلني يدان به ستالين وهو موقفه اليميني السافر عندما سند الحكومة الجمهورية في اسبانيا ضد العناصر الثورية اليسارية وأرسل خبراءه العسكريين وشرطته لتقصي اليسار ومطاردته .

تبلورت في ذهن الأمين العام الآمال العريضة المعقودة على السلم ، فتقرب من هتلر الذي كان يفكر على نسق مواز كي لا يبعثر قواته ويعرضها للحرب على جبهتيه ، ثم خطت الدبلوماسية الستالينية خطوتين متعاكستين فاقترحت عقد حلف وتوقيع معاهدة عسكرية بين بريطانيا وفرنسا وروسيا ، ومن ناحية أخرى ألمح السفير الروسي في برلين الى موضوع التقارب الروسي - الالماني ، وبدأ الغزل مكشوفاً بين هتلر وستالين ، ثم طالب الثاني بايجاد (أساس سياسي مشترك) تبع ذلك رسائل شخصية متبادلة بين الرجلين وتوقيع معاهدة عدم اعتداء ، وامست الحرب الثانية على شفا حفرة ، وعادت روسيا ثانية لمناطق النفوذ والاحتلال والسيطرة وداست أقدام ستالين البديهيات الماركسية اللينينية ، غير ان ذلك لاعتبارات الأمن المحضة وليس لدواعي التوسع .

سقطت بولونيا صريعاً بيد النازيين ، تلا ذلك معاهدة صداقة أعلنت أن المهمة الروسية الالمانية المشتركة هي إعادة السلم والأمن في بولونيا ، وعقدت صفقات تجارية كبرى بين البلدين كسب منها الروس الأدوات الآلية لإنتاج المدافع وكميات كبيرة من عتاد الحرب .

---

(١) يمنع هذا البند الشيوعي من التعاون مع البورجوازي مها كانت الأسباب والظروف .

صعق ستالين لهزيمة فلندا وسقوط فرنسا السريع فأغلق الممر الى روسيا عبر البلطيق واحتل دول البلطيق ، وتأزم الموقف بين روسيا وألمانيا فكشفت سياسة كل منهما عن اهدافها البعيدة ، ورسم هتلر حدوداً جديدة لرومانيا وفلندا دون استشارة الكرملين ، غير أن هتلر مالبث ان شعر بالخطر عندما واجـــه صعوبات ضد انكلترا فكتب الى ستالين « يرى الفوهرر ... ان الرسالة التاريخية للاتحاد السوفيتي وايطاليا واليابان وألمانيا هي في تبني سياسة بعيدة المدى» وتلاشت فكرة المعاهدة عندما فشل المندوب الروسي في وضع حد للنزاع حول البلطيق ورد هتلر باحتلال بلغاريا فاخرج بذلك روسيا كلياً من البلقان، تبودلت الاحتجاجات من الطرفين على خرق الحدود وتجمعت حشود الجيوش على الحدود .

في السادس من أيار ١٩٤١ فوجىء العالم بنبأ تعيين ستالين رئيساً للوزارة السوفيتية ، وفي ١٤ حزيران أعلن ستالين عفة وبراءة المانيــا وأنكر وجود تحشدات على الحدود وأثنى على الاتفاقات بين البلدين .لعله كان يرمي الى كسب ود الفوهرر وعدم الخوض في غمار حرب هو في غنى عنها .

بتاريخ ٢٢ حزيران ١٩٤١ شن هتلر الحرب ضد روسيا وتقدمت قواته بشكل مذهل ، دعا ستالين الشعب للمقاومة والاستبسال وتشكيل وحـــدات عصابات مسلحة وتدمير كل شيء في وجه العدو « سياسة الأرض المحروقة »وأعلن إننا نخوض « حرباً وطنية قومية » من اجل حرية جميع الشعوب . اجتاح الالمان ٥٤٠ ميلاً داخل الأراضي الروسية بأقل من شهر ، ودفن ستالين شكو كه بجيشه وخبا غيظه وغضبه .

أعلن هتلر حصار موسكو وسمى العملية (أعظم هجوم عرفه التاريخ) ، حوصرت لينينغراد وعزلت وتقهقر الجنرالات الروس ليعزلوا ويحل محلهم قادة

جدد ، باتت القوات الغازية على مشارف موسكو ، وصوت المدافع يلعلع في شوارعها مما أضعف معنويات الشعب وقوّى النزعات الفردية والانفصالية عزم الحكومة الرحيل عن موسكو ، رفض ستالين مغادرة الكرملين لأنه يجسد كل المعنويات والصمود العام ، وطموحه الخاص ، أصدر هتلر أمراً لقواته « بضرورة نسف الكرملين كعلامة على سقوط البلشفية » .

بدا الوضع يائساً فيما ٤٠ ٪ من السكان يرزحون تحت نير الاحتلال ، وارتكب هتلر خطيئته الفادحة التي كان ثمنها الهزيمة فأوقف العمليات العسكرية بسبب حلول الشتاء ، بينما أصدر ستالين أمراً لقواته بشن هجوم معاكس ، فكان أول تراجع للغزاة الألمان في الحرب الثانية ، وكان للمعركة نتائجها على المدى الطويل ، فقد رفعت من سمعة ستالين تجاه شعبه وأذكت روح المقاومة والنصر وفرضت على الحلفاء الاعتراف بالدور القيادي لروسيا ولقائدها الفذ .

في معركة ستالينغراد الحاسمة ظهرت بسالة وشجاعة - ستالين - فأبدى من ضروب المهارة والحزم مادوخ الرايخ ونسف مخططاته ، أحكم الألمان تطويق المدينة ودخلوا شوارعها ومصانعها وتحول القتال الى الشوارع ، جمع ستالين احتياطيه وزجه كله في المعركة ، تراجع الغازون ١٢٠ ميلاً ثم تراجعوا عن القفقاس فتوج بذلك بداية الانتصار في الحرب الكونية الثانية ، وطغت شهرته على جميع قادة العالم .

جرت تغييرات حاسمة في الحرب فالغيت الأعراف والتقاليد صلاحيات المفوضين السياسيين وأعيد تكوين فرق ووحدات الحرس الأحمر ، وأعيد اعتبار الأوسمة وجعلت التحية الزامية ، وفتحت نواد للضباط ومطاعم ، ومنح ستالين نفسه لقب مشير ، وانتصرت - القومية - من جديد على الأممية ، يقول ستالين

« هل يمكننا اعتبار الهتلرية نزعة قومية ؟؟ .. كلا ، لا يسعنا ذلك ، فالواقع أن الهتاريين ليسوا قوميين بل هم استعماريون ، بينما تعتبر البلشفية القومية عاراً وسبة .

أذهل ستالين العالم باعادته الاعتبار للكنيسة الأرثوذكسية التي منعت بعد الثورة ، فعل ذلك سعياً وراء تأييد الفلاحين والمتدينين ، ودعماً للهدنة الداخلية ، ورغبة في السيطرة المستقبلية على البلقان المتدين ، بدا ستالن وكأنه يتراجع عن البلشفية ، إذ حلّ الكومنترن الشيوعي الأممي ، وألغى نشيد الأممية فيما يمكن أن يدعى بالثانية .

التقى قادة الحلفاء في طهران (روزفلت - تشرشل - ستالين) في كانون الأول ١٩٤٣ ، وكان اللقاء حاسماً ، وراح كل واحد منهم يداور ويحاور ، ويحفر الأخاديد ، وبدا روزفلت ضائعاً بين الرجلين ، واحرز ستالين انتصارين في الاجتماع اولهما إقرار خطته الانزال العسكري في فرنسا ، وثانيهما ضم جميع مناطق النزاع مع بولونيا الى روسيا وصدر بيان قال « جئنا إلى هذا المكان ، وقلوبنا طافحة بالعزم والأمل ، وغادرناه اصدقاء في الفعل والروح والهدف » وانتهت بذلك مباحثات (الثلاثة الكبار) .

ما ان اجتاحت الجيوش السوفييتية بولونيا حتى أعلنت الحكومة البولونيه (القائمة في لندن) رفضها لوجود القوات السوفييتية داخل بلادها ، ورفضت روسيا وساطة أمريكا في الموضوع ثم اتهمت بريطانيا بالسعي سراً وراء صلح منفرد مع دول الرايخ الثالث . والأدهى من ذلك كله أن روسيا التي فضحت جميع الاتفاقات السرية وافقت على يد ستالين على مشروع « الشرطيين الأربعة »[1] وعلى انشاء حلف لممارسة السيطرة الفعلية على بقية أنحاء العالم ،

---

(١) الشرطيون الأربعة هم روسيا - أمريكا - بريطانيا - الصين .

وقبلت روسيا أن تمارس ضغطا غير مباشر على الأحزاب الشيوعية في أوربا الغربية للإبقاء على أنظمة الحكم الليبرالية والرأسمالية .

* * *

جمع ستالين في شخصيته أمرين متناقضين: التقليد والثورة. فهو ذو نزعة تقليدية محافظة محضة يذكر القياصرة ويستعيد أمجادهم ، ويثأر لهزائمهم . وذو نزعة ثورية تدعو لتحرير الشعوب ولانتشار الثورة العالمية. وفي الخامس والعشرين من حزيران ١٩٤٥ منح ستالين لقب « بطل الاتحاد السوفييتي » ورتبة القائد الأعلى للقوات المسلحه ... غير أن روسيا دفعت ثمناً فادحاً لانتصارها يقدر بسبعة ملايين قتيل وتشريد خمسة عشر مليوناً ، ضاع كل ذلك في زحمة النصر وراياته الخفاقة ، وقفزت شخصية ستالين إلى مرتبة القيادة الأسطورية ، يحوطها الشعب الروسي بالود والاحترام والامتنان ، ويعفو عن مظالمها وقهرها القديم .

انطفأت الحرب وعادت حياة الاستقرار وسمعة الجنرالات المنتصرين في أوجها ، حتى إن سمعة الجنرال جيكوف حامي موسكو وفاتح برلين كادت تطغى على شخصية ستالين ، نقب الأمين العام عن طريقة لتنحية خصومه فاعاد للحزب جميع صلاحياته وتنظيماته الجماعية ليكون بالمرصاد لأي تحرك عسكري ونحي الجنرال جيكوف عن منصبه وانتقل بعد ذلك إلى مهمة أساسية وهي احياء « الوعي البلشفي » الذي كادت الحرب تمحوه .

أبادت الحرب جيلا روسياً بأكمله ، باتت ذكراه تقض مضاجع الروس لكن طلائع حرب جديدة كانت تتنفس في أروقة الدبلوماسية وهي الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتي وأمريكا ، إذا أعلن تشرشل انسحاب بريطانيا من اليونان لعجزها عن صدها هجمات رجال العصابات الشيوعية ، عند ذاك أعلن

ترومان بأن حكومته مستعدة لمساعدة أية حكومة على مقاومة الشيوعية .

تتالت الانتصارات الروسية ، وحققت الشيوعية نصراً كبيراً بدخول جيوش (ماوتسي تونغ) بكين بتاريخ ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٩ ، وتحولت أنظار المراقبين من برلين حيث الصراع على أشده ، لترى ستالين المنهزم في الغرب ينطلق من مواقع جديدة في الشرق .

كانت حركة الشيوعيين اليوغسلاف بقيادة (تيتو) أول ضربة عنيفة وجهت لستالين من داخل الحركة الشيوعية ، وأدمته الضربة وعجز عن لجمها ، وكان الخلاف يدور حول « تعدد الطرق الوطنية نحو الاشتراكية » ، رفض الأمين العام هذا المبدأ وقام بموجة اعتقالات جديدة ومحاكمات صورية شملت أكثر قادة الأحزاب الشيوعية في أوربا الشرقية ، وعاد للدور الدموي القديم ، أما المرحلة الوحيدة التي نجت من عقابه فهي الصين التي قاد (ماو) فيها الثورة من الريف إلى المدينة مهملاً تعليمات الأمين العام ليظهر (ماو) كمنظر سياسي وعبقري وثوري ماركسي .

من أصعب الأدوار تفسيراً في حياة ستالين إعترافه الفوري والسريع بإسرائيل ، عندما كانت حكومات وأحزاب شيوعية أخرى تتساءل عن دور اسرائيل الامبريالي وتجاهرها العداء السافر ، ولعل هذه الصفحة من أكثر الصفحات غموضاً في حياته .

أغدق ستالين على نفسه ألقاباً عديدة لم ينلها إلا الأباطرة والملوك والحكام الفرديون ، وبدا وكأنه غير مقتنع بأهميته السياسية ، ولعبت عقدته النفسية دوراً في ذلـــك ، فأسبغ على نفسه « أب الشعوب » ، و « صديق الشغيلة ومعلمهم » ، و « شمس الانسانية الساطعة » ، ... الخ واستجلب كل الوسائل لتمجيد شخصيته وعبقريته الفذة ، فكتب سيرة حياته بيده !! « إن الرفيق لا يسمح إطلاقاً لأدنى

بادرة عجرفة أو غرور أو أعتداد بالنفس من أن تسيء إلى عمله » : ما أجدر هذه الكلمات بشخصه ، ولكنه دائماً وحتى في قمة النصر والسلطة فإنه يشعر بالنقص والتحتية وخاصة في فترة ما بعدالحرب ، حيث تضاعفت مزاجيته ونزقه وشراسته وبدأت اشباح غير منظورة تطارده وتصارعه ، فبلغت عقدة الاضطهاد عنده حجماً مستبعد التصديق .

استراتيجية الحرب ضد اسرائيل
والعمل العربي الموحد

تأليف : أمين النفوري

عرض ونقد : **ميشيل كيلو**

هـذا الكتاب هو الثـاني للمؤلف في بحث الوضع العسكري في منطقتنا ، أسسه ومكوناته ومنطلقاته ، وفي الهزيمة التي حلت بالعرب عام ١٩٦٧ ، وسبل دحرها والتخلص من نتائجها .

والكتاب يقع في قرابـة ٣٧٠ صفحة ويبحث بتعمق مختلف مظاهر الصراع العسكري بظلاله السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ويرسم سبل مجابهة شاملة للعدو تمتد على امتداد المناطق التي يحتلها العدو أو يهددها ، وتشمل كل الطاقات المتوفرة للأمة العربيـة من بشرية ومالية وتقنية .

---

(١) مطبعة طربين – دمشق – ١٩٧٠ . السعر ٧٠٠ ق.س .

ينطلق المؤلف في كتابه من أن حرب حزيران لم تكن مجرد هزيمة للأمة العربية ، بل هي تمثل حجر الأساس لتوسع صهيوني محتمل . فاحتلال سيناء وشرم الشيخ يضع الصهاينة في موقع جغرافي يمكنهم من تهديد البحر الأحمر والسودان والسعودية ، كما يمكنهم من عزل الدلتا المصرية عن الصعيد والمنطقة الممتدة من نجع حمادي إلى أسيوط وأسوان ، أي أنه يهدد عملياً بفصل رأس مصر عن جسدها . بهذا المعنى لا يمثل احتلال سيناء مجرد توسع جديد ، بل هو يقدم صورة عن توسع اسرائيل المقبـــل نحو تبوك في السعودية الذي سيمكنهـــا من دق إسفين في مؤخرة مصر ، ونحو البحر الأحمر ، خاصة بعد أن باشرت ببناء مطارات جديدة في منطقة شرم الشيخ ، وبتحصين جزيرتي الصنافر وتيران الاستراتيجيتين ، وبشراء زوارق صاروخية وغواصات سريعة هجومية . إن العمل جار على نزع الصفة العربية عن البحر الأحمر ووضع الملاحة فيه تحت رحمة القوات المسلحة الاسرائيلية . ويظهر مدى خطورة هذه المخططات في ما تردد عن إقامة قواعد عسكرية إسرائيلية في جزيرة مالطة التي تعتبر مفتاحاً لمنطقة شرق المتوسط .

من جهة ثانية يشير احتلال اسرائيل للهضبة السورية والضفة الغربية إلى نواياها المقبلة ، فهي تريد في المستقبل الاندفاع نحو وسط سوريا ، كما صرح دايان وباراليف اكثر من مرة ، واحتلال الضفة الشرقية من الأردن ، وهو ما سيمكنها من وضع العراق والكويت وشرق السعودية تحت رحمـــة طيرانها ، وخاصة طائرات الفانتوم بعيدة المدى التي بدأت إسرائيل تعتمد عليها .

من هذا العرض يخلص المؤلف إلى تحديد الأطراف التي يجب أن تدخل في رد العدوان الصهيوني ، وهي مصر وسوريا والأردن والعراق والكويت

والسعودية والسودان ولبنان، وهي اقطار يجب أن تعي مغزى ما جرى في حزيران، وتفهم أن العدو البعيد اليوم سيكون قريباً غداً . ولـــذا يقترح المؤلف خطة استراتيجية مفصلة لبناء الجيوش العربية وتسليحها وتدريبها ، كما يركز على ضرورة النظر إلى المعركة بجدية أكبر ، فالعدو لا يهزل .

ويقترح تقسيم الجبهات العربية المواجهة للعدو إلى جبهتين ، الجبهة الغربية وتضم مصر والسودان والجزائر (وليبيا بعد الثورة) والدول التي تريد الانضمام لها ، والجبهة الشـــرقية وتضم السعودية والاردن والكويت والعراق وسورية ولبنان (هذا التقسيم مأخوذ به الآن ، ولكن المؤلف يضيف إليه بعداً استراتيجياً أعمق فيجعله يشمل دولاً بعيدة الآن عن المواجهة كالسعودية والكويت ولبنان) ، ثم ينتقل الى التحدث عن المزايا الاستراتيجيـــة لكل من الجبهتين بالنسبة للعرب واسرائيل ، فيشرح الوضع الجغرافي والبشري والاقتصادي والمناخي ... الخ ، ويقدم اقتراحـات عملية حول نوعية التسليح والتدريب والحشد لكل من الجبهتين مع التأكيد الملح على ضرورة قيام قيادة واحدة لهما بكل ما يستتبعه ذلك من نتائج .

إن حشد الجهود وتوحيد القيادة هما بالنسبة للمؤلف مفتاح التطورات التي ستشهدها المنطقة في حالة نشوب الحرب ، وهو يخطط على أساس أنها ستنشب لا محالة ، والأمة العربية ، أو حتى دول المواجهـة ، تملك من الطاقات ما يكفي لدحر العدو وخنق أطماعه في مهدها .

بعد هذا الهيكل العام للوضع الاستراتيجي والميداني لكل من الصديق والعدو ، ينتقل المؤلف الى الحديث مفصلاً عن جيش العدو ، مؤسساته القيادية وتسليحه ، تدريبه وخبراته ، نوعية حروبه وسبلها ، أهدافه البعيدة والقريبة ، ثم

يفرد فصلاً كاملاً لسلاح طيرانه وسبل ردعه فالقضاء عليه، مع شرح مفصل لتاريخه وخبراته الميدانية ، وتعداد لأهم أنواع طائراته وعددها وميزاتها وأماكن إيوائها. وفي الختام يتحدث المؤلف في فصل كامل عن سبل الدفاع عن لبنان ووسائله . وهو فصل غني بالاقتراحات والبراهين على قدرة هذا القطر على الدفاع عن نفسه ، إذا ما أحسن تنظيم امكاناته ، بعكس ما تزعم بعض الأوساط اللبنانية .

إن كتاب « استراتيجية الحرب ضد اسرائيل والعمل العربي الموحد » غني بما يقدمه للقارىء . ولا بد لكل من يطلع على سير الصراع مع العدو من قراءته ، حتى لا يقول أحد بعد الآن أنه فوجىء بما حدث أو سيحدث .

إلا أن الكتاب يثير جملة من التساؤلات الهامـــة : هل يمكن فصل الاستراتيجية العسكرية عن الاستراتيجية السياسية لقطر من الأقطار ؟ وهل يمكن بالتالي أن تتوافق مثلاً استراتيجية للمحافظة ، وأخرى متفتحة ، ضمن الجبهة الشرقية التي يقترحها الكاتب ؟ وهل يعتقد الكاتب بقدرة الاستراتيجيـة العسكرية الواحدة (فيما لو وجدت) على طمس الخلافات الاجتماعية والسياسية القائمة بين الأقطار العربيـــة في وضعنـــا الراهن ؟ ثم عن أي شيء تنبثق الاستراتيجية الموحدة ، إن لم تنبثق عن أهداف سياسية واجتماعية موحدة ؟ أليس من الواجب أن نقول كيف نصل الى مثل هذه الاستراتيجية الموحدة ، بدلاً من أن نرسم استراتيجية نعرف سلفاً أنها ستفشل ولن تتحقق؟ ألا يرتبط صراعنا مع اسرائيل بصراعنا مع قوى تعتبر صديقة لبعض الأقطار العربية ذات الأنظمة المحافظة ؟ هذه الأسئلة تطرح نفسها على القارىء ، دون أن يجد إجابات شافية لها . إلا أننا نود أن نضيف أن الإجابات عن هذه الأسئلة تتطلب جهداً أكبر من جهد إنسان بمفرده ، فهي قضايا الأمة العربية بكاملها ، وهي وحدها تستطيع حسمها .

أدب المقاومة في ڤيتنام (١)

ترجمة وتقديم : غالي شكري

عرض : هشام الدجاني

«أدب المقاومة في فيتنام» كتاب جديد صدر مؤخراً عن وزارة الثقافة . وقد ترجم الكتاب وقدم له الأديب والناقد المعروف الاستاذ غالي شكري ، ويذكر المترجم في مقدمته أنه عندما أراد أن يطلع على أدب المقاومة في فيتنام ، وجد نفسه عندما قرأ هذا الكتاب أمام ثروة حقيقية . وهذا ما دعاه الى ترجمته واسم الكتاب بالانكليزية : « الأدب وحركة التحرر الوطني في جنوب فيتنام » . وهو يطلعنا على نماذج حية صادقة من أبحاث وشعر ونثر ، هي انعكاس أدبي وفني للحرب الدائرة في فيتنام .

(١) منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ٧٠.

الايمان والتنظيم هما السمتان البارزتان لدى الأديب الفيتنامي ، وهما النبض الخالق بين أضلعه . والوحدة الديناميكية العميقة بين الايمان والتنظيم ، كما يقول المترجم في مقدمته ، هي سر الأسرار الكامن وراء أعظم انتصارات العصر ضد أعتى قوى العدوان .

إن الكاتب أو الفنان الفيتنامي لا يكتب عن المقاومة ، وإنما هو « يقاوم » بالفعل ، لا بالقول. وأدب الأديب وفن الفنان لا يعبران عن المقاومة بقدر ما يشكلان جزءاً خطيراً منها .

والكتاب ثلاثة أقسام . يضم القسم الأول منها أبحاثاً ومقالات بأقلام أدباء وكتاب فيتناميين تزكي روح المقاومة ، وتتحدث عن بطولات غير عادية لأفراد من الأدباء والصحفيين والكتاب والرسامين . إنها بطولات يومية تحدث في كل قرية وبلدة ومزرعة ومدينة . هنا تنتفي الدعوة الى مشاركة الفن والأدب في المعركة ؛ لأن الفن والأدب « يصنعان » المعركة بالفعل ، فالأديب أو الرسام يقاوم فعلاً . لنأخذ مقطعاً صغيراً مما كتبه الكاتب الفيتنامي (تران دنه عان) عن « الحياة الأدبية والفنية في المناطق المحررة في جنوب فيتنام » :

« كان (جيانغ نام) في السادسة عشرة من عمره حين بدأت المقاومة ضد الفرنسيين . وقد عمل في البداية في مكتب الاستعلامات ... وأقبل الغزو الأمريكي . وفي المدن ، وفي ظل الحكومــــة الدمية ، عمل سائقاً ، وعاملاً في الزراعة ، وأميناً لمكتبة ، ثم انخرط في سلك المقاومة الجماهيرية حيث كتب قصائده . ولقد دخلت زوجته السجن مع طفله الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره، بينما كان هو يناضل في المعارك الكبيرة . وفي عام ١٩٦٥ عزم الأمريكيون على

مسح (كوشي) في عملية كبيرة . وتوجـــه (جيانغ نام) الى هناك ليكتب مقالة (أرض النار) ، ثم لحق بالمقاتلين في اقليم كوانغ نام ليشترك في تطويق قاعدة الأمريكيين البحرية في دانانغ . وكتب حينئذ العديد من القصائد والقصص ... »[1] .

ويقول كاتب المقال في مكان آخر ، بعد أن يستعرض الكثير من بطولات وتضحيات الفنانين والأدباء في فيتنام : « هذه هي الحيـاة التي يعيشها كتابنا وفنانونا . انهم يناضلون كالآخرين . ومنذ عام ١٩٤٥ وشعب فيتنام الجنوبية يقاتل من أجل الحرية . وابتداء من أصغر المقاتلين الى الضابط الكبير ، ومن الفدائي الى الكاتب ، لا يتقاضى أحدهم أجراً . جميعهم يعيشون بين الجماهير ويشتركون في الانتاج ، ويشاطرون الشعب أفراحه وآلامه »[2] .

أما القسم الثاني من الكتاب فيضم عدداً من القصائد نظمها شعراء مقاتلون فيتناميون . وهي قصائد تنبض بروح المقاومة والتحدي ورفض الضيم . لنقرأ مثلاً هذه السطور من قصيدة بعنوان « أغنيـــة المقاتلين » للشاعر سانه هاي :

البنادق والقنابل ليست طريقنا الى الحياة
فلم نكن أبداً أصدقاء للحروب
ولكنهم أقبلوا مسلحين حتى الأسنان
فهل نسلم أنفسنا للعبودية ؟ كلا .

* * *

(١) ص ٢٤ من الكتاب .

(٢) ص ٢٥ من الكتاب .

دعونا ننهض ، بالبنادق ، والسكاكين في الأيدي
دعونا نحمي أرضنا وأنهارنا وأسواقنا !
قساة هم وبرابرة .
ولكنهم ثمناً للدم سيدفعون دما

* * *

حتى قصائد الغزل ، كقصيدة « سنتزوج في الربيع » ، والقصائد الوجدانية ، لا تخلو من روح المقاومة والكفاح . لقد امتزج الحب الوجداني ، بحب الوطن . وامتزجت السعادة بلقاء المحبوب ، بالسعادة بتحرير البلاد . لنقرأ معاً كلمات فيين فونغ في قصيدة « سنتزوج في الربيع » :

أربع سنوات ! ولم نلتق بعد
الا الكلمات القليلة التي وصلتني ذات مرة على قطعة من القماش
تلوثت بدماء حاملة الرسائل الشابة
التي قتلها العدو في الطريق
ماتت ولكن رسالتك وصلتني بغير نقصان
وجاء في كلماتها الأخيرة إلي :
« إنها تحبك ، وتفكر فيك ،
وهي في المدينة في غمرة المقاومة » .
وأمست سايغون أكثر قرباً لقلبي
لأن في طرقاتها أتخيل ظلالك العابرة
ويدوي صوتك بين الجموع
منضماً لزلزال المقاومة !

أما القسم الثالث فقد خصص للقصص ، وهو يضم ثلاث قصص مختارة من أدب المقاومة الفيتنامي . وتحكي هذه القصص جميعاً بطولات أناس عاديين من الشعب الفيتنامي، آمنوا بعدالة قضيتهم وحريتها ، وعزموا على طرد المستعمر البربري منها . وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على تأصل روح النضال ، وصلابة الايمان لدى هذا الشعب الآسيوي المكافح . إن التضحيات الجمة والخسائر اليومية الفادحة لا تزعزع ايمانه بالنصر ، بل تزيده صلابة على صلابة وإيماناً على إيمان ، حتى يحقق الشعب وحدته القومية وحريته واستقلاله .

إن أدب المقاومة في فيتنام سيضيف الى الأدب الفيتنامي أبعاداً جديدة، كما سيضيف الى التراث الانساني ما يغتني به على مر العصور .